بطْن البِير

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : بطن البير
المؤلف : أميرة شاهين - أميمة السيد
تصنيف الكتاب : رواية
غلاف محمد عطية
إخراج: محمود عنتر
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٦٣٤٣ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 565 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بطْن البِيــر

روايـــــة

أميـرة شـاهـين
أميمـة السيـد

ما قيمة القلبِ دون الحب؟!
وما قيمة النّفسِ دون الكرَامة؟!
وما قيمة الوَطن دون الحرّية؟!

أن يحتلك الخوف فلا تعود قادرًا حتى على الهمس

راويــة

"لم أعد أريد من حياتي هذه غير أن تنتهي"

كتبت هذه الجملة كعنوان لي على صفحة التواصل البريدي الخاصة بالاسم المستعار الذي اختلقته.

أشعر أن هذه الصفحة كطاقة صغيرة أنظر منها نورَ السماء، أخفيها كمن يخفي قطعة قلبه الوحيدة التي تنبض بالحياة، وأضع صورة عين تسقط دمعة.. بدلاً من صورتي، وكأني أرى خلاصي في هذه الدمعة.. لو أنها سالت..

لم أعد أقدر على البكاء..

ولم أبك من يوم فقدت "نور".. ابنتي الوحيدة..

ولم أعرف كم من الوقت مر وأنا أنظر إليها في حوض السباحة وهي تصرخ ولا أعرف سببًا لصراخها..

ربما ثانيتان..

ربما عامان..

جريت مع من جرى نحوها، وسبقني أخرون، كانوا لها أقرب، وصاروا يجذبونها وهي تصرخ، ولم أفهم.. كما لم يفهم أي من الموجودين ما يحدث، كأن يدًا شيطانية تجذبها إلى قاع حوض السباحة الذي لا يتجاوز ارتفاعه المتر، ويتلون الماء باللون الأحمر، هل يمكن أن يكون دمها؟

وأخرجوها لي.. تتدلى منها خراطيم وشرائط.. ولم أفهم.. ولا أذكر ماحدث بعدها، فما حدث كان أكبر من قدرتي على الإحتمال..

وعرفت ما حدث فيما بعد، خلل في ماكينة الشفط في قاع حوض السباحة، وخلل في ضمائر أصحاب الفندق الكبير، ألصقوه بتقصير

مهندس الماكينات المسئول، وأُجبرت على ابتلاع بلواي، وأُجبرت على الصمت، فزوجي "مجدي" شريك في الشركة التي تمتلك سلسلة من الفنادق، وهذا أحدها.

عندما أنظر إلى تاريخ اليوم أجد أن سبعة أشهر قد مرت من يوم أن فقدت "نور"، أفقت بعدها لأجد نفسي في المستشفى، ولأعرف أنها قد ماتت، وليبقَ آخر ما تعلق بأذني منها هو صراخها، وليبقَ تشبث أصابعها الصغيرة برقبتي هو آخر ما أذكره من لمساتها.

وانتقلت بعدها لبيتي، فما كان "مجدي" ليسمح لي أن أبقى ولو بضعة أيام في منزل أبي، وبقيَت معي أمي أيامًا حتى استشعرت ضيقًا من "مجدي" بوجودها، فتركتني وحيدة.. معه..

ولا أذكر أنني تحدثت في هذه الأشهر السبعة أكثرمن بضع كلمات، وكأنني لم أعد بحاجة إلى الكلام، كما لم تعد بي قدرة على البكاء.

طلبت من "مجدي" أن يسمح لي أن أذهب لزيارة أبي وأمي مرة في الأسبوع، ولم يكن قبل ما حدث ليدعني أذهب، لكن صمتي الطويل، وزهدي الشديد في أي وجه من أوجه الحياة هو ما دفعه على ما يبدو ليبدي هذه الطيبة تجاهي.

تأتي أختي "رغدة" وأبناؤها لمنزل والديّ يوم ذهابي، لتمضية الوقت معي، هي أيضًا طبيبة مثلي، لكنها تعمل، ولها من الأبناء أربعة، بنت وثلاثة أولاد، ويعمل زوجها "عليّ" مهندس إنشاءات.

لم يتفق هو و"مجدي" في أي شيء من يوم تقابلا أول مرة، فمجدي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وأبوه كان عضوًا بارزًا في حزب "الوفد" قبل الثورة، أما "علي" فأبوه.. والذي كان يعمل وكيلاً لوزارة الزراعة..

قد أمضى عدة أعوام في السجن السياسي لكونه كان عضوًا في جماعة "الإخوان المسلمين"، وأظن أن "عليّا" له نفس الإتجاه كأبيه غير أنه لا يفصح عنه، وترتدي "رغدة" غطاءً للرأس طويلًا وملابس واسعة، لكنها لم تتخل عن أناقتها يومًا.

جلست معي "مريم" إبنة أختى بالأمس وقتما كنت بمنزل والديّ، تكبر "نور" بسبعة أعوام، لو عاشت "نور" سبعة أعوام أخرى لكنت رأيتها جميلة نابهة كمريم الآن..

- تحبي نلعب لعبة ظريفة يا طنت "راوية"؟

عاتبتها أمي برفق:

- خالتك تعبانة يا "مريم" سيبيها تستريح.

نظرت لأمي وأنا أبتسم ابتسامة لا أكاد أشعرها على وجهي:

- سيبيها يا ماما.. قولي يا "مريم".

- بصي يا طنت.. أنا هقولك كلمات وانتي تقولي اللي بييجي على بالك ساعة ما تسمعي الكلمات دي وتوصفيه، وشايفة مين معاكي فيها، وعايزة تفضلي فيها ولا لأ.. وانا في آخر اللعبة هقولك معنى اللي قلتيه ده.. ماشي؟

هززت رأسي بالموافقة. وأكملت مريم:

- أول كلمة: غابة..

- غابة؟

فكرت بعض الوقت.. تثاقلت الكلمات على شفتي وأنا أحاول أن أرى غابة أمام عيني، وأكملت:

- شايفاها غابة كبيرة ومعقدة، أشجارها عالية ومتشابكة ومخيفة،

ومش شايفة نور الشمس فيها، وشايفاني فيها وحيدة، وأتمنى لو أستطيع الهرب منها.

أطالت "مريم" النظر إليّ، ثم أكملت:

- طيب.. دبة..

- دبة - وابتسمت بوهن- دبة يا مريم؟ ماشي.. دبة كبيرة وشكلها مفزع ومقرف وعايزة تموتني وأنا بجري منها، بس مش عارفة أهرب.

- طيب..

قاطعتها:

- أرجوكي قولي حاجات كويسة يامريم، متقوليش حاجات تخوف..

- حاضر يا طنت والله كلها حاجات عادية، بس انت اللي بتخافي حبتين.. اللي بعد كده.. بحيرة..

- أيوة .. بحيرة حلوة.. واسعة وهادية بس الدنيا هتضلم وانا مش شايفة حاجة وخايفة أقرب منها.

- مش شايفة حد معاكي؟

- لأ.. مفيش حد خالص.

- طيب.. آخر حاجة.. قصر..

- قصر؟

- أيوة قصر.. اوصفيه..

- قصر صغير.. أبيض.. ومفيش مانع أدخله.. خليني أستريح.

- ياخبر يا طنت..

- إيه؟ كسبت؟

قلتها وأنا أحاول أن أجاريها وأبدو سعيدة.

ابتسمت "مريم" بأسى وكأنها تواسيني.. وقالت:

- على العموم متركزيش أوي في الكلام ده.. كله في الآخر كلام فاضي، بصي.. الغابة حياتك، والدبة.. يبقى شريك الحياة.. والبحيرة تبقى الحياة العاطفية وكده، والقصر يبقى..

- يبقى إيه يا "مريم"؟

- يبقى قبر الواحد.

ونظرت إليّ بحزن، وقالت محاولة تغيير الحديث: طيب فيه لعبة تانية؟

ونهرتها أمي: كفاية كده.. قلتلك خالتك تعبانة.

وغادرت إلى بيتي، وكلمات اللعبة في أذني، كيف وصل بي الحال لهذه الدرجة؟ لا أكاد أذكر كيف كنت قبل أن أتزوج، كنت صغيرة، وابتلعتني دراسة الطب فلم يكن لي حظ من نصاحة البنات ولا مهارة النساء، وتلقفني "مجدي"..

يكبرني بخمسة عشر عامًا، ويكبرني في الحياة بقرون، أشعر من يوم تزوجته أني دلفت إلى محبس وثير، لا أرى فيه سواه، ولا أسمع فيه إلا إلى كلماته، ولا مكان فيه إلا لرغباته..

لا أعرف عنه شيئًا، ويعرف عني كل شيء، وأعرف أنه يراقبني في كل لحظة من لحظات حياتي..

لا أطلب شيئًا، ويأمرني هو بكل شيء..

وتصورت أن تأخري في الإنجاب عيب يتحمله هو منى، وأحسن هو استغلال ما ظننته وقتها عيبًا.

ثم جاءت "نور" فأنارت كل أيامي، واعتبرت ما أتحمله من قسوة

أبيها وتسلطه ثمنًا زهيدًا لكمّ السعادة والأمان الذين يمنحهما لي وجودها، واعتبرت "نور" سببًا لحياتي، ويهون العمر لأجل نظرة عينيها وضحكة ثغرها.

"لم أعد أريد من حياتي هذه غير أن تنتهي"..

أكتب هذه الجملة الآن كعنوان على صفحة التواصل البريدي للاسم المستعار الذي اختلقته "الفار الجربان"، ما أقبح هذا الإسم، وكأني كنت أعذب نفسي بما أظنها تستحقه.

ولم تمض لحظات على كتابتي لهذا العنوان حتى تسلمت دعوة للتواصل من اسم مستعار آخر.. أشد غرابة وقبحًا من اسمي وإن شابهه في وصفه.. وصلتني دعوة من "الفار المحروق"..

ضحكت في البداية عندما رأيت الاسم، وهممت أن أهمل هذه الدعوة، لولا أن عيني وقعتا على اسمي الذي اخترته، ورأيت ما وراءه من ألم وذل، وعدت أنظر ثانية إلى اسم صاحب الدعوة..

ماذا لو لم يكن يمزح؟

ماذا لو كان اسمه عنوانًا لاحساسه بالقهر والحزن كاسمي؟

ووجدتني أقبل دعوته، ربما يفهم الفار المحروق ما يعنيه الفار الجربان.. مادمنا كلنا فئران..

- شكرًا على قبول دعوتي.
- أهلاً وسهلاً.
- هل أحدث رجلًا أم امرأة؟
- وهل تحدث هذه المعرفة فرقًا؟
- لا أظن..

- فلنبق هكذا بلا تصنيف.

- لفت نظري اسمك، يشبه كثيرًا اسمي.. فهل تقصد المعنى الذي يحمله؟ أم أنه من باب المزاح؟

ترددت بعض الوقت قبل أن أرد على سؤاله، وربما جال بخاطري أنه "مجدي" يتحدث إليّ، أوربما يتنصت إلى حواري، أيكون من أحدث رجلاً أم امرأة؟ ومن هو؟ وتعجبت من قدر الخوف الذي اعتراني لمجرد أن أتحدث إلى أحدهم.. أن يحتلك الخوف فلا تعود قادرًا حتى على الهمس، وقطع هو صمتي بقوله:

- أنا لا أعرفك ولا أنت تعرفني.. فما رأيك لو تخليت عن بعض خوفك، لربما ساعد كل منا الآخر.

كتبت بسرعة:

- ومين قال إني خايفة؟

- إذًا .. أنت إمرأة.. حسنًا.. وأنا رجل.. وردًا على السؤال الذي وجهته لكِ منذ سطرين: نعم أنا أعني ما كتبته عن نفسي.. وأراني فأرًا محروقًا.

كتبت باستسلام:

- وأظنني أقصد ما كتبته، ولا أراني إلا فأرًا جربانًا.

وساد بيننا بعض الصمت عندما قطعه هو بسطور قصيرة تتابعت يتحدث باقتضاب عن نفسه، وربما أراد أن يبعث في نفسي الطمأنينة وأن يشجعني على الحديث إليه، وربما أراد هو أن يتحدث.. عرفت أنه مهندس، وأنه لا يعمل، وأنه يعيش مع أمه، وأن له من الإخوة أربعة، مات أحدهم في حادث، وأنه لم يكن في مصر الاثني عشر عامًا الماضية، ولم

يخبرني أين كان عندما سألته.

وصار يتحدث عن إخوته وعن أبنائهم، وعن ابن أخيه الأكبر والذي ولد بعد موت أبيه، ونقلني حديث "خالد" إلى عالم آخر، ربما لا أرى كل حوائطه وأركانه، وإن كنت أستشعر ألمًا عميقًا وقتما يتحدث عن نفسه وعن أخيه الأكبر والذي مات.

- أنا دوشتك؟

- لا خالص والله.. بس أنا لازم أقوم دلوقتي.

- طيب.

- مع السلامة.

كانت الساعة تقارب العاشرة مساءًا ميعاد عودة "مجدي"، أنشأت هذا البريد دون علمه، وأحاول أن أرى العالم من خلاله دون أن يعرف، ولم أفكر فيما حدث، أكملت يومي، وانتظرت الغد.

وفي نفس الميعاد كنت كمن هو على موعد على نفس الصفحة البريدية، أقص ماحدث لي..

"نور" وكيف أحضروها إليّ في ذاك اليوم، وكيف كان عجزي أمام صراخها، وكيف أني لم أقدر أن أتشبث بها..

ووجدتني ولأول مرة من يوم فقدتها.. أبكي..

ولم يعلق "خالد" على ما قلت، بل تتابعت سطوره القصيرة المتلاحقة وكأنه دوره في الرواية، يحكي لي كيف أنه أيضًا رأى أخاه يموت أمام عينيه، وتنزف الدماء من رأسه ومن وجهه ومن أذرعه، ولا يقدر على مساعدته، ولم يقدر على التشبث به..

قاطعته:

- هو كان عنده هيموفيليا؟

- مش ده المرض اللي بينزفوا فيه؟ لأ.. ده كان سليم وكان صحته جامدة.

- أصلك بتقول بينزف من كل حتة؟

وسادت فترة صمت فهمت منها أنه لا يريد أن يتحث عن سبب موته، وقلت لنفسي ربما حادث..

وتتابعت الأيام، أنتظر فيها ميعاد المساء، أحكي بعضًا من حياتي، ثم يحكي بعضًا من حياته، ولا يعلق أحدنا على الآخر، وكأنها جلسات علاج نفسي.

أحكي أيامًا وشهورًا وسنينَ ظننتني نسيتها، ولم أكن أعرف أني أحمل كل هذا الكم من الحزن والغضب والمرار في قلبي.

ولم أكن أتصور أنني لا زلت أذكر يوم صفعني "مجدي" أول مرة، تأخرت يومها في الرد على هاتف المنزل، وكان قد مر عام على زواجنا، ولم أدرك ساعتها لماذا ولا كيف ولا ماذا يجب عليّ أن أفعل وأنا أجدني أدور في الهواء لأسقط أرضًا.

ثرت وقتها وأرغيت وأزبدت، وصرخت وشكوت وحاولت أن أوقف تكرار صفعاته المتتالية على وجهي بمناسبة وبدون مناسبة.. فلم أقدر.

وتصورت يومها أن تأخري في الإنجاب هو ما دفعه لفعل ذلك، غير أني عرفت بعد قدوم "نور" إلى الدنيا أنه يرى ضربي حقًا من حقوقه، وأن إحجامه عن ذلك فضلًا يعرف له.

وتحولت حياتي إلى تتابع لكلمة واحدة أرددها في اليوم مائة مرة.. "حاضر".

ولم أكن أعرف مقدار حنقي على أبي وأمي لأنهما لم يساعداني للخلاص من "مجدي" وقتما تيقنت استحالة إصلاحه، ولأنهما دفعاني كي أكمل معه، وكانت "نور" هي زادي الذي يعينني، وكانت النور الذي يغمرني.

ولم أكن أعرف قدر حسرتي على عدم الاستمرار في عملي والذي تركته بعد نيلي درجة الماجيستير نزولاً على رغبة "مجدي".

وأظل أحكي كل مرة حتى أفرغ ما امتلأ من جعبة ذكرياتي..

فيسود بيننا صمت.. وأرى بعدها سطور "خالد" تتابع.. قصيرة متلاحقة..

لا ألمح فرقًا بين الصفعة علي الوجه والركلة بالبيادة؛ كلاهما يبقي في الحلق مذاق الهوان.

خالد

أصبحت أنتظر الوقت الذي أسمعها وأتحدث معها.

أشعر بالارتياح وأنا أحكي عذاباتي وتسمعني دون أن تراني.

لا أعلم كيف حكيت لها عن موت أخي.. أصعب موقف مررت به، لكنه تداعي الي خاطري عندما حدثتني عن ابنتها..

خواطر تستدعي خواطر..

فموت ابنتها أمام عينيها ومنظر الدماء وشعور الصدمة والحسرة والألم أعاد المشهد أمامي من جديد، لم أخبرها كيف مات، حتي ظنّت أنه مات مريضًا أو في حادث.

علي "الشات" يمكنك كتابة ما تشاء؛ فليس هناك من ينظر في عينيك ويعرف الحقيقة أو يطلب مزيداً منها.

جميل أن تحكي إلي الحد الذي تريده، ولا تشعر بالضغط عليك لإكمال الحكاية.

لم أخبرها بسجني حتي الآن، ولا أنتوي، ليبق هذا الأمر طي الكتمان.

تذكرت وأنا أخطو بخطواتي المتعبة في الممر المظلم المؤدي إلي غرفة مأمور السجن، أجر قدميّ بعناء، تسوقني أفكاري المتداعية أمامي في خضوع، أنظر لبلاط الممر وكأنني أحفر نقوشه البالية في ذاكرتي، أو لعلني كنت أودعه..

أجلس علي دكة خشبية متهالكة في غرفة المأمور المعتمة، ذات الحوائط المتآكلة والألوان الباهتة، أتطلع من زاوية الزجاج المكسور المغلق علي حديد النافذة، ألمح شعاع الشمس..

تدمع عيناي..

واستنشق نسيم الحرية..

أطلعني الشاويش المناوب علي كشف الاستلام فقمت بالتوقيع.

- اتفضل يا عم خالد، حاجتك كاملة كده ؟

- أيوة كاملة.

- طيب يا عم.. كفارة.. مش عايزين نشوفك هنا تاني.. إيه مالك.. مكلضم ليه.. مش مبسوط إنك خارج ولّا إيه؟

تسلمت أشيائي القليلة، قميصي القطني المقلم، بنطالي الأسود، حزامي الجلدي، حافظة نقودي، ساعة يدي، حذائي ذو النعل الإيطالي، ميدالية بها مفتاحين، ومسبحة.

احتضنت حاجاتي كعائد لها من سفر طويل، أشم رائحة الماضي، وأفني في العطر القديم.

أعطاني الشاويش شيئًا آخر، لفافة ورقية وكيسًا أنيقًا من البلاستيك، وهو يقول:

- امسك يا سيدي؛ أخوك اللي مستنيك برة جابلك الغيار ده.

استبدلتُ بدلة السجن الزرقاء بملابس عادية؛ تغير مظهري؛ وبقي في داخلي شعوري السجين.

ودعت زملائي بمشاعر متضاربة، شعور بأنني سأفتقدهم، وشعور بأنني لا أتمنى لقاءهم، ففي عيونهم أقرأ ألمي وأري صورة كياني الضعيف.

في المقعد الأمامي في سيارة أخي إلتصقت بالنافذة كمن يخشي الوقوع، كان الصباح باكراً، الشوارع هادئة، والمحال لا تزال مغلقة، شارعنا كما هو منذ تركته، نفس البيوت، نفس المطب الصناعي الذي يصطدم بعجلات السيارة فيصدر صوت زقزقة، ربما زادت صفوف

السيارات بجوار الرصيف العريض، بيتنا صار أعلى قليلًا، لم أرَ الحديقة الجميلة ذات الأشجار الوارفة الملاصقة له، ورأيت مكانها عمارة ذات ارتفاع شاهق، ولون كئيب.

استلقيت علي سريري بهدوء، وكأنني استعيد راحة جسدي خلية تلو الأخري، في نفس مكاني، لايزال سريري محتفظاً بانخفاض بسيط يرسم ملامحي، إلتفت إلي الجانب الآخر من الغرفة فرأيت سرير أخي الأكبر "عاطف".

كان يكبرني بعامين فقط، كل ذكرياتنا معًا، كل خطواتنا، آمالنا، أفكارنا، نفس المدرسة والأصدقاء والمغامرات، سهراتنا في غرفتنا بعد نوم الجميع ندبر كيف نخبر والدينا بنتائج اختبارات الشهر، وكيف نخطط لأحدنا بالتحدث الي ابنة الجيران الشقراء، ثم اختلافنا من يطفئ نور الغرفة قبل النوم.

أري وجهه الباسم ينظر لي فوق وسادته..

وأراه يصرخ من الألم والسياط تقطع ظهره فينزف دمًا، وذلك الوحش يطعن آدميته ورجولته أمامي، وصوته المرتجف الباكي، كان عالياً يملأ أذني..

انخفض شيئًا فشيئًا.. صار همسًا.. انقطع..

ساد الصمت لحظة..

بعدها سمعت صوت قطرات دمائه علي الأرض..

نقطة.. نقطة..

ثم صوت ارتطام جسده بالأرض، وصوت جسده يُجر في بركة من دمائه، حتي اختفي من أمامي، ولا زالت صورة وجهه الصبوح تبتسم

أمام عينيّ.

يا إلهي..

كيف تحملت هذا المشهد ولم أمت بعده؟

كيف عشت كل هذه الأعوام، أراه كل يوم في أحلامي..

أناديه ولا يجيب..

الصدمة شلّت ذراعي، كنت معلقًا بالسلاسل، لا أقوي علي الدفاع عنه، وكأن ذراعي ارتضت أن تبقي طوال العمر عاجزة عن الحركة كما عجزت عن إنقاذه.

شُل ذراعي الأيسر تمامًا، بينما استعاد ذراعي الأيمن بعض حركته.. كم أفتقدك يا أخي الحبيب.

بدأت أرتب بعض الأشياء، فقد أحضر لي "مصطفى" أخي الأصغر ما ينقصني وما رأي انني سأحتاجه، وضعت ملابسي القديمة التي أتيت بها من السجن في أحد الأرفف، فتحت حافظة نقودي، كان بها بعض الجنيهات القليلة، بطاقتي الشخصية، كارنيه عضوية نقابة المهندسين، تذكرتين سينما حفلة الساعة السادسة، و.. صورة "مها"..

كانت جارتنا في العمارة المقابلة، والتحقت مثلي بكلية الهندسة، وكانت تصغرني بثلاثة أعوام، كنت قد أنهيت السنة الثانية بالكلية عندما التحقت هي بها، زارتنا هي ووالدتها السيدة الطيبة وصديقة أمي، تسألنا عن أحوال الكلية:

- والنبي يا "خالد" يابني، عاوزة أعرف رأيك في الكلية، "مها" عاوزة تدخل هندسة، مستخسرة المجموع.

قاطعتها مها:

- مش مجموع وبس يا ماما.. أنا بحب الهندسة.

- يا بنتي بتحبيها ازاي؟ هو انتي عمرك جربتيها؟ انا كان نفسي تدخلي طب.

- يا ماما .. أدخل طب ازاي .. أنا خلاص دخلت قسم رياضة، وجبت مجموع كويس وعايزة أدخل هندسة.

- طيب قولّي انت يا "خالد" يا بني رأيك إيه؟

- والله يا طنت هي كلية صعبة ومتعبة.. الشغل فيها جامد.. وبنسهر وبنتأخر.. وبعدين هي مش بناتي قوي..

نظرت لي "مها" وقتها نظرة حادة، كاد الشرر أن يتطاير منها، شعرتُ أنني خذلتها، وخيبت رجاءها، فتداركتُ الموقف علي الفور:

- بس احنا معانا زميلات كتير.. وهما مبسوطين مش بيشتكوا.. وبعدين ف الأول وف الآخر يا طنت نشوف رغبتها إيه..

- ما رسّتنيش علي بر يا "خالد".. يعني لو دي "غادة" أختك توافق تدخل ولا لأ؟

- لأ.. قصدي .. قصدي براحتها يا طنت.. هي حرة.

وظللتُ أتحدث هكذا حتي قالت لها والدتها :

- خلاص يا "مها" يا بنتي.. اعملي اللي انتي عايزاه.. بس ما تجيش بعد كدة وتقوليلي.. صعبة يا ماما.. تعبت يا ماما.. عقلك ف راسك.. تعرفي خلاصك..

نظرت لي نظرة ممتنة ؛ ونظرت لها نظرة طويلة وكأنني أقول لها:

- أي خدمة..

أفقت من شرودي علي صوت طرقاتٍ خفيفة علي باب غرفتي،

وقفت منزعجاً:

- مين؟

- أنا يا عمو.. أنا "كريم".

اتجهت للباب أفتحه وقد كنت أوصدته بالمفتاح..

كريم.. حبيبي.. ابن الشهيد عاطف، يا الله.. يحمل نفس ملامحه ونفس لون بشرته، نفس نظرته وطريقة ابتسامته، بل وطريقة مشيته.

سبحان الله "اللي خلف ما ماتش" قلتها لنفسي وانا أحتضنه بقوة، وكأنني أشتم فيه أنفاس والده الحبيب.

- بقيت ف سنة كام يا كريم؟

- سنة ستة.. ابتدائية.

- ماشاء الله.. وعامل إيه في المذاكرة.. شاطر ولا لأ؟

- يعني.. شاطر شوية.. بس أكتر حصة بحبها.. حصة الكومبيوتر.. ماما جابتلي كومبيوتر السنة اللي فاتت.. بس مش بافتحه غير في الإجازة.. عاوزه يا عمو؟

- بتشوف ماما يا حبيبي؟

- أيوة.. بتيجي كل يوم تلات.. تسلم عليا وعلي تيتة.. وبعدين أنا بروح عندها كل يوم خميس بعد المدرسة وبرجع يوم السبت بالليل.

كانت أحلي أوقاتي تلك التي يجلس فيها "كريم" علي سرير أبيه، وأجلس أنا علي سريري، نتحدث سويًا، أرحل في عمق الزمن، أثبت الوقت حينما كان "عاطف" في مثل سنه، أتخيلني معه، أحاوره، ألعب معه، أسحب لغز "المغامرون الخمسة" من تحت وسادته، ألوح له به، يجري ورائي حاملاً الوسادة، أشعر بدبيبها علي ظهري، وأسمع رجع

أصواتنا صديً يملأ المكان..

أهداني "كريم" جهاز الكومبيوتر ليبقي في غرفتي حتي تبدأ الإجازة، عندما دخلنا السجن كان الإنترنت لايزال حديثًا، لم يكن متداولاً مثل الآن، كنت أتمني أن ألتحق بقسم الكهرباء ثم أتخصص إتصالات لأصبح مهندس كومبيوتر، ولكن والدي رحمه الله أصر علي دخولي مدني لأعمل معه في مجال المقاولات.

***

ثلاثة أشهر بعد خروجي من السجن، لازلت أسمع صوت النفير يوميًا في أذني..

ثلاثة أشهر أستيقظ في تمام الساعة السادسة صباحًا باحثًا مابين النوم واليقظة عن حذاء السجن البلاستيكي، آملاً في العثور علي دورة مياه خالية، أفيق حينما تلامس قدماي أرض الغرفة المغطاة بالموكيت، فأتأكد انني لم أكن أحلم، وأنني في منزلي من جديد.

بمرور الأيام، ألفت المكان، لكنني كنت دائم الجلوس بغرفتي، بداخلي خوف كبير من الشوارع والناس، لم أكن أغادر غرفتي إلا للذهاب إلي الحمام، وكانت أمي تحضر لي طعامي في غرفتي، تضعه علي المنضدة بجوار السرير، و لا آكل حتي أغلق باب الغرفة بالمفتاح..

إرتبطت كثيرا بجهاز الكومبيوتر، حتي تمنيت أن يحدثني وأحدثه، أشكو له ما يعتمل في صدري وأسمع له..

حتي جاءتني الفكرة، وأنشأت حسابًا شخصيًا علي موقع البريد الإلكتروني، سألني عن اسمي، لم أرغب في كتابة اسمي الحقيقي، أحببت أن أكتب اسمًا وهميًا بشرط أن يعبر عن حالي؛ تذكرت والدي

في طفولتي حينما كنت أشاكس "عاطف"، كان يضحك من قلبه ويقول:

- انتو يا ولاد عاملين زي القط والفار.

- مين يا بابا القط ومين الفار؟

- "عاطف" القط وانت الفار يا غلباوي.

- اشمعني أنا الفار؟

- علشان سنانك واقعة زي سنان الفار بالظبط.

ابتسمت وانا أسمع صوت أبي، قمت الي المرآة المثبتة علي باب الدولاب من الخارج، نظرت إلي وجهي، كانت أسناني كاملة، ولكن شيئًا ما في نظراتي الزائغة وقسماتي الخائفة يذكرني " بالفأر"..

نظرت إلي رقبتي والجزء الأعلي من صدري من فتحة البيجاما، تحسست آثار الحروق المتناثرة فيها، فقررت أن يكون اسمي"الفار المحروق".

لا أنكر أنني في البداية حدثتها بعد ما لفت انتباهي اسمها الشبيه باسمي، ولكنني بعد ذلك أحببت الحديث معها، شئ في ارتجاف حروف حكاياتها يقربني لعالمها، شئ في اختيار اسمها يشبه ملامحي، من يتوصل لاستعارة اسم "الفأر" ؛ ويكتب الجملة اليائسة "لم أعد أريد من هذه الدنيا غير أن تنتهي" ؛ لابد وأنه عاش الخوف، عانى الصدمة واختفاء الحلم.

حديثها الأخير معي أرّقني، لم أستطع النوم ليلتها جيدًا، تقلبت كثيرًا في فراشي وراودتني ذكرياتي، حديثها عن صفعات زوجها المؤلمة، تكرارها يومًا تلو الاخر، ثورتها وصراخها ورفضها لأول صفعة ثم إعتيادها، كلمة "حاضر" التي لازمتها، تحتمي بها من صفعاته، و

تسقط السيف من يد جلادها.

لا ألمح فرقًا بين الصفعة علي الوجه والركلة بالبيادة؛ كلاهما يبقي في الحلق مذاق الهوان.

وجودها خارج أسوار السجن لا يعني الحرية، كانت مثلي، جدران سجنها بيتها، سجانها زوجها..

يختلف السجن والسجان، ويظل الإحساس بالظلم.

كنت أنتظر موعدنا لنتحدث، أطلب من "غادة" أن تعد لي كوبًا من الشاي بالنعناع الأخضر الطازج، أتمتع بمذاقه وأنا أتحدث معها، حينما حكت لي كيف تزوجت صغيرة، عقب انتهاء الكلية، تذكرت "مها"، وحكيت لها كيف قابلتها صدفة في الكلية أول يوم في الدراسة، حينما سمعت صوتًا رقيقًا رفيعًا ينادي بحذر، إلتفت لأراها فبادرتني:

- شفت.. دخلت هندسة..

قلت لها ضاحكًا:

- برضه؟ انتي اللي جبتيه لنفسك.. عمومًا مبروك.. ربنا يوفقك.. لو عُزْتي أي حاجة قوليلي علي طول.

- شكرًا يا خالد.. وشكرًا كمان علشان أقنعت ماما.

كانت "مها" رقيقة، رشيقة، سريعة الحركة ، يبدو علي ملامحها الذكاء، والحرص علي المذاكرة.. نعم.. الحريصون علي المذاكرة وملتهمو الكتب الدراسية يكون لهم ملامح خاصة.

شعرت بها عبر البريد الالكتروني تضحك، وتسألني كيف كانت ملامحها، قلت لها منتبهة؛ حريصة علي جدول المحاضرات كثيرة الأسئلة، تريد أن تعرف كيفية المذاكرة.. ومن أين.. وهل توجد كتب

خارجية أم لا.. والأكثر من ذلك أنها أحضرت المسطرة حرف ال "T" الشهيرة معها من أول يوم.

سعدت بلحظة سعادتها، تمنيت أن تطول، حاولت مجتهدًا أن أبحث في ذاكرتي عن أحداث سعيدة، حاولت استرجاع بعض النكات الساخرة حتي ولو قديمة، لكني لم أنجح، ربما لأن السعادة ابتعدت في مكان دفين في أعماقي لا تطاله يدي، تراكم عليه الصدأ علي مر السنين.

كتبت لي بحروف مترددة..

- واتخطبتوا ازاي؟

- أبدًا ، فضلت أشوفها كل يوم، واحدة واحدة لقيتني اتعلقت بيها، بأحب أشوفها، أقعد معاها، أطمن عليها، وانشغل بيها واسرح فيها، واغمض عينيا ألاقيها قدامي.. يعني حبيتها أوي..

- وبعدين؟

- كنت خلصت الكلية وهي لسه.. كنت بعدي عليها في الكلية علشان أشوفها.. ومرة رجعنا سوا.. بابا شافنا.. قالي بنات الناس مش لعبة.. عجباك وبتحبها.. أخطبهالك.

- وبعدين؟

- بس.. خطبتها.. أول حاجة قالتهالي بعد الخطوبة كان سرها الكبير اللي فضلت مخبياه عني طول الوقت..

- إيه؟

- إنها دخلت الكلية علشان تبقي قريبة مني وتشوفني علي طول.. وإنها كانت بتحبني أنا.. مش الكلية.. كانت طيبة ونقية.. كنت أول حب في حياتها..

- وسيبتوا بعض ليه؟ معلهش اذا كنت بسألك.

- لا أبدًا.. ظروف الحياة.. سافرت برة فترة طويلة.. مانفعش تستني.. والدها طلب ينهي الموضوع.

- ماكانش ممكن تاخدها معاك؟

- كان صعب.

- بلد إيه دي اللي صعب تاخدها لدرجة انك تسيبها وانت بتحبها؟

- بلد بعيدة.. و فيها طعم الغربة بجد..

- ماكانش ممكن ترجعلها؟

- برضه كان صعب.

- انت كنت فين؟

***

ويبدو أن أبواب الرحمة لابد يومًا أن تفتح.. مادمنا نوالي عليها الطرق بدموعنا..

راوية

- إنت كنت فين؟

ولم يرد.. وانتظرت.. وكررت سؤالي..

- إنت كنت فين؟ وليه ماراحتلكش؟ وليه مرجعتش؟ وليه مكنتش بتتكلم في التليفون ولا بتبعت جوابات؟

وظلت الشاشة صامتة.. ثابتة..

- إنت سامعني؟ إنت لسه على النت؟

- أيوة.. أنا سامعك..

- طيب مبتردش ليه.. ومردتش على جواباتها ليه؟ وسبتها ليه رغم كل الحب اللي كان بينكم؟ وازاي هانت عليك؟ سنتين بتبعتلك جواب كل أسبوع.. مكنتش بترد على الجوابات ليه؟ كنت فاكر إيه؟ هفضل مستنية ولا حاجة.. إنت حتى مرضتش ترجع علشان تخطبني، وسمعت كلام مامتك، وسبتني..

ولا أعرف كيف رآني وأنا أبكي، ولا كيف سمع نشيجي..

- من فضلك متعيطيش.. أنا آسف إذا فكرتك بكل ده، أنا مكنتش أعرف.

- مكنتش تعرف إيه، مكنتش تعرف إني هتجوز "مجدي"، اللي كان عارف حكايتنا وبيذلني بيها لحد دلوقتي، من يوم ما اتجوزت وانا مكسورة، كل مرة كنت بطلب فيها الطلاق كان بيتهمني اني عايزة أروحلك.. إنت كسرتني.

- وليه منكرتيش الكلام ده؟ وازاي سمحتيله يعمل كده؟

- لأني كنت فعلا بفكر فيك علطول، وبحلم كل دقيقة إني أروحلك..

- "راوية".. أنا مش هو.. أنا "خالد"، وانا متخليتش عن "مها"

زي مانت فاكرة، أنا كنت بحبها، ولسه بحبها لحد دلوقتي، ومظنش هحب غيرها، "مها" اللي أنا حبيتها لسه ف قلبي، بنام واصحى على صورتها، بس أنا مكنتش أقدر أرجعلها ولا أقدر آخدها معايا..

وسكت قليلاً ثم أردف:

- أنا كنت في السجن.

وتتابعت السطور القصيرة تحكي كيف اقتادوه مع أخيه عضو الجماعة الإسلامية إلى المعتقل، وكيف أمضى إثني عشر عامًا يتنقل من معتقل إلى آخر، وكيف قتلوا أخاه أمام عينيه..

وفهمت معنى كلمته أن أخاه كان ينزف من كل مكان..

وفهمت لماذا يقول عن نفسه فأرًا، ولماذا يرى نفسه محروقًا..

وعرفت كيف أن أبا "مها" حضر إليه في سجنه يستأذنه في إنهاء خطوبتهما نزولًا على توصية طبيبها النفسي، وأنه سوف يصحبها وأمها وأختها معه لعمان حيث يعمل هناك.

- أنا عارف إن ميعاد نومك جه.. تصبحي على خير.

ولم أقدر على الرد.

"خالد" كيف فعلوا بك كل ما فعلوا..

تتضاءل أزماتنا وتذوي مصائبنا عندما تختلط بحكايات ومصائب الآخرين.

قضيت ليلتها أفتح صندوقًا في القلب أغلقته على ما فيه منذ انقطعت أخبار "طارق"، كنا معًا في الكلية، كان يسبقني بأربعة أعوام، وباتت الكلية كلها تعرف حكايتنا، ويعرف بها أهلي وأهله، وكأن أمه كانت موقنة بقدرتها على خنق الحكاية وقتما تريد، فصممت على

تأجيل خطبتنا لحين نيله درجة الماجستير، ورضخ هو لطلبها، ثم رتبت له سفرًا للسعودية، ولا أعرف كيف هانت عليه حكايتنا، ولا أعرف كيف استمر تعلقي بهذه الحكاية حتى نسيتها..

عندما أفكر في "طارق" الآن، لا أجده يحرك في قلبي ريشة عصفور، وأتعجب من كل تلك الأنواء التي كانت تعصف بي عندما أسمع اسمه، وكيف كنت أتقهقر وأتقوقع عندما يعايرني "مجدي" بفشل قصتي مع "طارق".. وبأنه رماني.. وكيف أنني تعلقت كل هذه السنين بقصة بطلها من أوراق الشجر الهش.. يتكسر مع أول صدمة.. وتذروه الرياح.. "خالد" المسكين..

صرت أردد في نفسي هذه العبارة ولعدة أيام، لم أجرؤ على فتح صفحتي البريدية، أردت أن أفكر في كل من عرفت، وكأنني أعيد ترتيب أوراقي من جديد..

وكأنني أنظر ثانية لهؤلاء الذين دهسوا أيام عمري بأحذيتهم الحديدية الباردة، أراهم بلا تيجان ولا معاطف، ولا أقنعة.. وأضع "خالد" بجوارهم، بكل معاناته، وهدوئه، ورضاه، وحبه، ووفائه، فأرى خيالاتهم تتبعثر وتتلاشى.

أسمع "مجدي" يحادثني بكل غروره وصلفه:

- اجهزي علشان هنروح عيد ميلاد "ميرنا" بنت حسام نور الدين.

- أنا تعبانة.. مش هقدر..

- بقولك إجهزي بسرعة، مفيش وقت للكلام الفاضي ده، وانتي هتفضلي تعبانة لحد إمتى؟ يلّا بسرعة..

وقفت جامدة، لم تهتز عضلة في وجهي، كنت أردد لنفسي: وإيه أسوأ

حاجة يعملها؟ هيقتلني؟ يكون أحسن برضه.. بس لو مد إيده ولمسني.. همشي.. ومش هرجع تاني..

هكذا رددت بيني وبين نفسي.. وصرت أنظر إليه بعينين ثابتتين..

ويبدو أن ذكاءه قد خانه، فلم يعرف أن "راوية" التي اعتاد على قهرها لم تعد موجودة، وأن أخرى قد بعثت من سباتها الطويل..

ويبدو أن أبواب الرحمة لابد يومًا أن تفتح.. مادمنا نوالي عليها الطرق بدموعنا.. ويبدو وكأنني كنت أدعوه ليصفعني الصفعة الأخيرة، والتي أحسست بها أنني قد كفرت عن كل ذنوبي..

وأنه قد آن لي أن يُطلق سراحي.. وأنه قد حان ميعاد الرحيل.

***

أن يبلغ بنا العجز ذلك المدى فلا نرى إلا الموت يخلصنا.. وأن يتمكن منا الخوف ذلك القدر فيصبح الإنتظار هو غاية ما نقدر عليه.

راويــة

أتعجب من هدوئي وتماسكي وأنا مقدمة الآن على خطوة كهذه..

أفكر في طلب الانفصال حتى من قبل أن يعقد زواجي، وأفكر أن أبتعد عنه حتى من قبل اقترابنا، وكنت أتمنى لو يذهب ولا يعود.

واحتفظت برغبتي هذه لم أظهرها إلا عندما صفعني لأول مرة.. حاولت ساعتها أن أنهي ما بيننا، غير أن خوفي من فشل آخر، وخوفي من أن يُظن أني فشلت في زواجي لتعلقي بحكايتي مع "طارق"، هو ما دفعني أن أقبل أعذاره وأن أمتثل لرغبة أبي وأمي أن أتحمل هذه الحياة، ولم أشْكُ بعدها لأحد، ولا حتى لنفسي، وكأنني كنت أنتظر أن أفقد عينًا أو ذراعًا حتى يصبح لي عذر في طلب الانفصال.

عشرة أعوام مرت علىّ وأنا أنتظر.. ربما كنت أنتظر الموت في أغلب الأوقات، كي يفصل في مظلمتي.

أن يبلغ بنا العجز ذلك المدى فلا نرى إلا الموت يخلصنا..

وأن يتمكن منا الخوف ذلك القدر فيصبح الإنتظار هو غاية ما نقدر عليه.

حزمت أمري وحقائبي، وحملت مابقي مني، وتركت بيتًا لم أشعر يومًا أنه بيتي، ولم أتحدث كثيرًا مع أبي وأمي، كل ما قلته أنني لن أعود لمجدي، وأنني سوف أرفع قضية خلع لأنني أعرفه تمام المعرفة، وأعرف أنه لن يقبل أبدًا أن يطلق سراحي.

كنت أحادثهم بهدوء ويقين أغناني عن كثير من النقاش والكلام، كنت أنظر في أعينهم بعينين قويتين هادئتين، وقد أصبحت متيقنة أن نظرة الانكسار في عيني هي التي كانت توحي لهم بخطأ مقصدي وبضعف حجتي.

أصبحت متيقنة أن انكسارنا وخوفنا ليس له مَعينٌ سوى إحساسنا بقصورنا وأخطائنا، وأن عباءة الخوف سقطت عن كتفي مع سقوط آخر صنم من أصنام قصتي القديمة في قلبي.

جلس أمامي محدقًا بي.. محاولاً أن يقرأ ما وراء السطور، وقال:

- أنا مش هسيبك يا "راوية"، وقلت لعمي كده.

- عارفة، وكنت عارفة كده من الأول، وعلشان كده رفعت خلع، وهيجيلك إعلام المحكمة قريب.

- رفعتي عليا أنا خلع يا "راوية".. إنت وصلتي للدرجة دي؟ وفاكرة إنك هتكسبيها؟ وفاكرة إني هسيبك تكسبيها؟ إنت مش عارفة أنا ممكن أعمل إيه؟

أجبته بنفس الصوت الساكت، وبنفس النظرة المعتمة:

- مش مهم أكسبها.. معدش في حاجة مهمة، أنا مش باقية على حاجة، لا عندي بنت أخاف عليها، ولا بيت أخاف عليه ولا شغل أخاف على سمعتي فيه، ولا صحاب، ولا حاجة خالص، معنديش حاجة، هتعمل إيه يعني.. هتطلبني في الطاعة؟ مانا كنت فيها.. هتحطني في السجن؟ عادي واخدة عليه.. هتقتلني؟ يكون أحسن برضه.. واهو أستريح..

قبض على مفاتيحه الموضوعة على المنضدة أمامه وانصرف..

هكذا.. دون أن يصرخ أو يكسر أو يضرب كما كان يفعل دائمًا..

جلست إلى شاشة الكمبيوتر، هذه أول مرة أجلس فيها إليه، كنت قبلاً أدلف إلى عالم الهواء عن طريق هاتفي المحمول، أتلهف أن أحكي لخالد عما حصل لي في الأيام الفائتة، سأحكي له وأشكره لكونه كان معي في رحلة خروجي من أعماق البئر التي سقطت فيها من سنين،

سأعترف له بفضله، فلولاه ولولا حكاياته، ولولا أني حكيت له.. ما كان تابوت ذكرياتي انفتح، ولا كان عمري القادم تحرر من عمري الفائت.

ورغم أنه لم يحدث أي شيء بعد، وأنني حتى لم أقم دعوى الخلع التي هددت بها "مجدي" بعد.. إلا أنني كنت أشعرني وقد تحررت قدماي من قيودهما وأشعر أنني أطير على الساعات بعدما كانت الثواني تزهق أنفاسي.

ولم يرد "خالد" على كل أسطري..

انتبهت إلى أنني أكتب على الشاشة أمامي منذ مايقرب من النصف ساعة، ولم يرد هو بكلمة، كتبت عن حياتي مع "مجدي" وعن قصتي مع "طارق" وعما حدث من يوم حديثنا الأخير، ولم يرد هو بكلمة..

- إنت معايا؟ لسه موجود؟ مبتردش ليه؟

- أيوة أنا سامعك.

- طيب وساكت ليه؟ اتكلم .. ده دورك..

وسكت.. تحيرت من صمته.. هل هو غاضب مني لما فعلت؟

- من فضلك رد.. إنت زعلان مني؟

- بصراحة يا "راوية" أنا حاسس إني السبب ف اللي حصل ده، اللي حصل ده مش سهل، ده بيت هيتخرب..

قاطعته:

- اللي حصل ده كان لازم يحصل من زمان، إنت لو ليك يد فيه فلأنك سمعتني وخليتني أسمع كل اللي مدفون في نفسي من سنين، أنا كنت نسيت صوتي عامل ازاي، كنت نسيت شكلي في المراية من كتر مانا مش عايزة أبص لروحي، إنت ساعدتني إني أخرج من القبر، البيت

اللي ساكنين فيه ميتين مش بيت.. ده قبر.. أنا كنت بتمنى الموت كل يوم، إنت أكيد فاهم يعني إيه تتمنى الموت كل ساعة، أنا كنت بحط صوابعي طول الوقت على نبض ايدي وأحلم اني أقطع شرياني.. حتى لو إنت السبب فِ اللي حصل، وده مش حقيقي على فكرة.. يبقى انت ساعدتني وعملت فيا معروف..

- أنا شايف إني أحسن أبعد..

- أنا أصلاً معرفكش، ومعرفش إذا كنت حقيقي والكلام اللي بتقوله حقيقي ولا لأ.. كل اللي حصل ده ملوش علاقة بيك وبحكايتك خالص.. إنت صديقي الوحيد دلوقتي..

وسكت.. وانتظرت أن يعدل عما انتوى ، لكنه ظل صامتًا، فأكملت:

- زي ما تحب.. خلاص يا "خالد" أنا مش عايزة أحملك فوق طاقتك، بس عايزة أقولك إني مش هنسى جميلك ده، وكنت أتمنى إني أساعدك زي ما ساعدتني، يمكن في وقت تاني يكون لينا فرصة تانية.. مع السلامة يا "خالد" وربنا معاك.. وادعيلي لما تفتكرني.

- مع السلامة يا "راوية" إنت كمان إدعيلي.. ربنا معاكي.

وانطفأت الدائرة البرتقالية أسفل الصفحة البريدية معلنة خروج "خالد" منها، وأنا أمسح دموعًا كانت تودعه.

وسمعت صوت أبي يناديني، وعرفت أن محامي "مجدي" قد جاء يتفاوض على إنهاء الزواج مقابل أن أتنازل عن كل حقوقي وعن دعوى الخلع التي رفعتها.

ووافقت.. وأخبرته أنني لن أتنازل عن الخلع إلا بعد أن تصبح ورقة طلاقي في يدي..

خرجت إلى الشرفة..

وصرت أنظر إلى الشارع أسفل البيت.. هل ما أنا مقدمة عليه صح أم غلط؟

عندما أعود لقلبي أجده مرتاحًا وأراه ولأول مرة منذ سنين يبتسم برضا.

ولا أنكر حزنًا غصّ في قلبي على بيتٍ طالما اعتقدت أنه ثابت صامد، وقضيت عمري حبيسة جدران اعتقدت أنها لا يمكن أن تنهدم، واحتملت قهر سنينَ ظنًا منى أنني الأغلى في قلبه، رغم صلفه وعناده وغروره وإيذائه وتحكمه في كل صغيرة وكبيرة في حياتي، لكنني كنت أظنني الأغلى في قلبه..

وجاء التهديد بدعوى الانفصال ليجعله يرسل محاميه كي يفاوضني وليفتح لي الباب وليطردني من الجحيم.

ولأول مرة منذ سنين أسمع زقزقة العصافير على الشجرة العجوز القائمة أمام بيتنا..

وغمرتني حالة من التسامح والسلام..

وتعجبت أنني أحسست بالشفقة على "مجدي"، ودعوت الله أن يكون معه، رغم كل ما فعله بي، ورغم علمي أنه لو طال رقبتي الآن لخنقها بيديه.

***

لكننا في كل لحظة نشعر أننا علي قيد الحياة نتحمل تبعات اللحظة وتثقلنا همومها.

مجـدي

آخر ما تصورته من "راوية" أن ترفع قضية خلع لتتركني.

آخر شئ تصورته أن يصبح لها صوت يعبر عن رأي.. ويصبح لها رأي يتحول الي قرار.. ويصبح عندها القدرة علي تنفيذ قرارها والبدء فيه.

حقيقة.. لم أكن أتوقع منها ذلك ولم أحسب لما حدث هذا حساب.

لو تعلم "راوية" كم أحببتها، كانت لي كنسمة صيف منعشة، كنت أراها كفراشة متألقة وزاهية، كنت أكبرها بخمسة عشرة عاما، لكنني أحببتها، أحببت نقاءها وبراءتها وطهرها.

رأيتها طفلة، ثم رأيتها امرأة مكتملة الأنوثة، رائعة، تدرس في كلية الطب، في السنة الرابعة عندما حضرت خطوبة أحد أقاربنا، نضجت ملامحها عن ذي قبل، ازدادت جمالاً وتحديداً، وامتلأت شباباً ونضارةً، لمعت عيناها، واستدار جسدها الممشوق خلف بساطتها واحتشام ملابسها، أسرتني ملائكيتها ورقتها، وكنت وقتها أختنق من غلظة زوجتي وفظاظتها وسيطرتها.

كانت حياتي مع "قسمت" زوجتي السابقة أشبه بالحرب الباردة، ونزاع البقاء للأقوي وللأصلح، وكانت دومًا هي الأقوي، فهي ابنة صديق أبي الذي كان رفيقًا له في حزب الوفد والوحيد الذي سانده حينما فقد كل أملاكه وثرواته بقرارات التأميم عقب الثورة.

لم ينس والدي أبدًا موقفه هذا، فاعتزم رد جميله بأغلي ما يملك وقتها، ابنه الوحيد، ساقني أبي لهذا الزواج الذي لم أرفضه أيضًا، كان زواجًا مشرفًا متكافئًا.

وكانت "قسمت" جميلة وجامعية ومدللة، تم الزواج في وقت سريع،

في احتفالٍ راقٍ وجيه، في حضرة صفوة المجتمع.

لم نعِش خلف ذلك الباب المغلق بمفردنا، عاشت معنا سطوة أبيها وعنجهية أمها، لم يمر علينا يوم دون نزاع، علا صوتها، وأصبحت تمتلك الكلمة والإرادة، فكنت أري صورتي أمامها تقترب من صورة أمي التي ظلت تحافظ علي شكلنا الاجتماعي ومكانتنا أمام الجميع بينما ترتعد أمام سطوة أبي وجبروته.

يوم أن رأيت "راوية" في حفلة الخطوبة تلك، كنت بالفعل قررت الانفصال عن "قسمت"، وعدم الحفاظ علي حياتي معها أكثر من ذلك، خاصة بعد ما تحملت وحدي أعباء شركات أبي وأنجحتها، وبعدما شاركت آخرين.

لم أعد أتمسك بقالبي الإجتماعي، كبر والدي، لم يعد يملك زمامي ومقودي كالسابق، أظهرت مللي لها، أصبحت لا أهتم بها، ولا بكلامها، هجرتها، فطلبت الطلاق مني، رأيت "راوية"، أحببتها، خفق قلبي لها وهو الذي لم يخفق من قبل، تمنيتها، وعرفت بمن أريد الإرتباط مرة أخري.

تابعت أخبارها، فارق السن بيني وبينها أقلقني، وتساءلت كثيرًا، ما الذي يدفع شابة بهذا الجمال في مقتبل عمرها لتتزوج من رجل مطلق ويكبرها بخمسة عشر عامًا؟

مر عامان وأنا أحمل بين جنباتي حبها، أرتاد الأماكن التي ترتادها، أختلق المواقف لمحادثتها، كانت تحدثني بهدوئها وحنانها ولم يكن في بالها مشاعري التي أكنها لها، ولم أكن لأبوح لها، عشت أحلي مشاعري.. الشوق.. الحنين.. الغيرة..

أصابتني غيرة مجنونة وهي تقترب من "طارق" زميلها، ظلّا يتلاقيان، وأصبحت أراهما يجلسان فترات طويلة بمفردهما في النادي.. يتناجيان.. يتهامسان.

بدأت أقرأ الشوق في عينيهما، والحب في مصافحتهما، كنت أموت في كل مرة أراهما، أري شبابه، وأعقد المقارنات بيني وبينه، وشعرت أن المسافات تتزايد بعدما علم الجميع بأمرهما ولم يكن سرًا خاصًا بهما، إلي أن حدثت المصادفة التي كنت أنتظرها..

ذاع الخبر في العائلة، سافر "طارق" وتخلي عن حبه الكبير.. حبيبتي" راوية"، هجرها وتركها تعاني آثار صدمتها بإنهيارٍ نفسيّ ألمّ بها عولجت منه فترة ليست بالقصيرة، تابعت الموقف عن قرب، حتي تحينت الوقت المناسب لاعتلاء المشهد.

ذهبت لوالدها مباشرة، تضاءلت عيوبي أمام انكسار عينيه..

السن والطلاق لا يعيب الرجل، لكن ارتباط المرأة بعلاقة حب طويلة يفر الحبيب في نهايتها عيب لا يغتفر.

كنت لوالدها بمثابة العصا السحرية التي سيتكأ عليها، ترفع إنحناءة ظهره فيقوي علي المسير، عاش حياته يحتمي بسمعته الطيبة، وأوقعته ابنته الحبيبة باندفاعها في بئر عميق من الخبايا والحكايا والأسرار.

رحب والدها بي، كنت ناجحًا و لي اسمٌ مشهور، حينما يقترن اسم "راوية" باسمي، تقطع الألسنة، وتختفي اللمزات.

تزوجتها..

وهبتني نفسها.. جسدها.. عقلها.. روحها.. عمرها، واحتفظت بقلبها.

لم أشعر يوما أنني امتلكت قلبها..

ذلك القلب لم ينبض بي..

لم أسْرِ في دمائها ويحتويني.. مهما حاولَتْ الإقتراب مني تظل صورة حبيبها في عينيّ..

لم أقتنع يوما بمشاعرها نحوي، حتي عندما قالت لي إنني الآن زوجها وكل شئ لها وأنها تحبني لم أصدقها.

رأيت في السابق نظرات الحب بعينيها لحبيبها ولم أعد أراها معي.

كانت لا تشعر بمكانتي ونجاحي، لا تنبهر بي، لا تراني كما يراني الآخرون، كنت ضئيلًا في نظرها.

وبعدما حصلت علي دراستها العليا، ماجستير طب الاطفال، وطلبت أن تستمر في عملها، تملكني شعور الغيرة مجددًا، رفضت عملها، ربما لتظل تحتاجني، ربما خشيت أن تقابل حبيبها أو تعيش ذكرياتها، لم أفهم شعوري وقتها جيدًا سوي أنني رفضت وأصررت علي رفضي.

لم تعرف كم أحببتها..

لم أعرف كيف أحبها..

صورتها في عينيّ باقية لا تختفي..

عاشت عمرها معي لم تغفر لي أني في يوم صفعتها..

وماذا يعني أني صفعتها مرة.. أو ربما عدّة مرات؟

لكنها المسئولة عن ذلك، كانت تدفعني إلي هذا التصرف، تمتلك من الردود ما يفقدني توازني، فأطيح بها، ثم إنني إعتذرت لها في أحيان كثيرة فلماذا لم تقبل اعتذاري وتسامحني؟ وماذا كانوا يفعلون

في السابق؟

ألم يعهد الرجال ضرب زوجاتهم.. ولايعتذرون؟

فلماذا تقوم الدنيا ولا تهدأ حينما أفعل أنا هذا؟

من تظن نفسها؟ لو كانت تحبني حقاً لسامحتني، ولو كانت تخاف علي مشاعري ما أغضبتني.

حولت حياتنا إلي جحيم، أصبحت متجهمة، لا تكاد تنظر لي، لا تتحدث إلّا باقتضاب شديد.

قللت طلباتها تحاشيا للكلام معي، حتي علاقتنا الخاصة تساق إليها كما تساق إلى الموت، لم نخرج من هذه الدائرة المفرغة إلّا بمولد "نور".

أطلت علينا "نور" بوجهها الصبوح الندي، أصبحت نقطة نلتقي عندها، تقاربنا علي سيرتها والحديث عنها، كبرت وازداد بعمرها إقترابنا، زدنا ارتباطًا ومحبةً، واشتركنا في الحلم من أجلها.

كانت "نور" كل حياتها وشغلها الشاغل، ملأت فراغها، أنستها رغبتها في العمل، شدتها بكل كيانها إلي عالمها الصغير، وكانت كذلك نور حياتي.

رحلت "نور" فتركتها حطامًا، وعادت كما كانت لا تراني، ولا تحيا معي.

الصدمة كانت قاسية علينا، لكنها لم تركن إليّ، وكأن المأساة مأساتها وحدها، كأنني لم أكن شريكًا لها فيها، لم تحتم بي تبث أحزانها، أو تشاركني أحزاني، لم تطلب حبي ودعمي.. طَلبته من أهلها، كادت تتقبل العزاء وحدها وتحرمني حتي العزاء.

أصرت علي مقاضاة الشركة التي أساهم بها، كيف لم تفكر بي؟

نعم.. كان خطأً في المواصفات، ولم يكن أبدًا إهمالاً، ولكن مامعني إصرارها علي إغلاق شركتي والزج بسمعتها علي صفحات الجرائد، هل سيعيد ذلك "نور" إلي الوجود؟

لماذا إتهمتني بعدم حبي لإبنتي؟

هل هذا معقول؟

كانت دوماً تتهمني بأنني لم أحبها منذ زواجنا، فهل لا أحب ابنتي أيضًا؟

كيف تفكر؟

ألا تري العناء الذي ألاقيه لنحيا حياةً رغدة؟

هل الحب عندها كلام يقال كأحلام الصبية والمراهقين؟

هل تعاني اضطرابًا في مشاعرها؟ أم أنني لا أجيد التعبير عن مشاعري؟

***

كان الوقت متأخرا عندما زارني المحامي يعرض عليّ فكرة التفاوض معها في الطلاق مقابل التنازل عن مستحقاتها وعن دعوي الخلع التي رفعتها..

انقبض قلبي.

شعرت بالنهاية، وشممت رائحة الفراق التي لم تزل تملأ البيت منذ رحيل "نور".

ضاق المكان بي، تمنيت أن أرى أمي، أفنى في أحضانها فأصير كأن لم أكن، أتساوى بالعدم، أتجاوز تجاربي، أخطائي، نجاحاتي، صراعاتي، أهدأ إلي حد الزوال وأرفض العودة للحياة من جديد..

لكننا في كل لحظة نشعر أننا علي قيد الحياة نتحمل تبعات اللحظة وتثقلنا همومها.

ها هي أمي.. أتت بي ورحلت، ورحل أبي، ورحلت ابنتي، واليوم ترحل زوجتي، تطفئ الأنوار، وتسدل الستار، لأبقي وحيدًا أحمل خمسين عامًا من الحياة علي عاتقي.

انتبهت علي صوت "نادية"، شقيقتي الكبرى، تشبه أمي كثيرًا، بعد وفاتها بدأت نبرات صوتها تقترب منها، فقط أغمض عينيّ وأنا أتحدث اليها فأشعر أنني أتحدث إلى أمي.

هللت عندما رأتني كأمي تمامًا:

- وحشتني يا "مجدي"، بقالي كتير ما شوفتكش، من أيام العزا، ربنا يصبر قلبك يا حبيبي.. مالك مهموم كدة ليه؟

- "راوية" طالبة الطلاق..

- الطلاق؟ ليه إيه اللي حصل؟

- خلاص ما بقيتش عايزة تعيش معايا بعد "نور"؟

- معقول.. إزاي الكلام ده.. ربنا يديكم تاني ويعوضكم، معقول تخسر بنتها وبيتها، لا يا "مجدي"، قول كلام غير ده، إنت أكيد زعلتها.

- أبدا.. ما فيش حاجة جديدة حصلت.

- يبقي في حاجة قديمة.. قولي يا "مجدي".. طمّني..

- كنا معزومين.. قالت مش خارجة.. إنفعلت عليها شوية.. خلاص يعني الدنيا اتهدّت؟

- بس ده مش سبب.. أكيد في حاجة تاني.. قولّي يا مجدي..

- يمكن بس.. مدّيت إيدي.. عليها..

نظرت إليّ بإنفعال شديد وبدهشة:

- معقول يا "مجدي"؟ إنت تعمل كده؟

- إيه المشكلة يعني؟ الست لازم تقدر ظروف جوزها.. انفعلت شوية، جايز مضغوط ف الشغل أو عندي مشكلة، لازم تستحملني.

- تستحملك؟ تضربها؟ لا يا مجدي.. الست مش ممكن تسامح أبدًا في موضوع الضرب.. ده إهانة ليها.. لوجودها.. لكرامتها.. إنت تقبل إن "مراد" يمد إيده عليّا؟

- إنتي غيرها.. هي علي طول معيّشاني في نكد، محسّساني بالتقصير، مش راضية بالعيشة معايا، مش مبسوطة، وانا موفرلها كل حاجة.

- كان لازم تقولها الكلام ده.. تتناقش معاها.. توصلوا لحل.. مش تضربها..

- اللي حصل.

- وهتعمل إيه دلوقتي؟

- هاعملها اللي هيا عايزاه.

- بالسهولة دي؟

- دي رافعة عليا دعوي خلع يا "نادية".

- للدرجة دي؟ أنا فاكرة يا "مجدي" ماما الله يرحمها، مرة زمان واحنا صغيرين بابا مد إيده عليها، فضلت قاعدة في أوضتها أسبوع بحاله لغاية ما صالحها، بس فكرة الطلاق ما كانتش موجودة زمان.

- طيب ما هو كل الستات بيحصل لهم كدة، كل واحدة بقي تنهي حياتها؟

– دي حاجة صعبة.. مش كل واحدة تقدر تتحمل كدة، وخصوصا لما تبقي في رقة "راوية".

– أصدك ضعفها.. أنا متأكد إنها هترجع تاني، طول عمرها معتمدة عليا، ودلوقتي هتعمل إيه؟ وهتصرف منين؟ انتي ناسية انها ما بتشتغلش؟

***

ولماذا تخجل المطلقة من حالها وتتدارى به بينما يجاهر به الرجل وكأنه ضحية

راويــة

مضت عدة أيام من يوم عودتنا من مكتب المأذون.. وأنا ملتزمة فراشي وكأني التصقت به.. وكأنني أحتمي بلحافي الكبير، وكلما سمعت خطوات أمي قرب الباب غطيت وجهى وتظاهرت بالنوم، وربما فتحت الباب وأسمعها تنتظر بعتبته بضع لحظات ثم تغلقه ثانية بهدوء.

ويحين ميعاد الطعام فأجدها قد أحضرت لي طعامي دون أن تتكلم بغير كلمات قليلة: عاملة ايه؟ ايه الأخبار انهارده؟ ثم تقبلني وتنصرف.

تعاملني أمي وكأنني جريح من جرحى الحرب قد أثخنته جراحه وذكرياته..

ولا أعرف أنا ماذا حدث لي؟

لم أكن أعرف أن الطلاق بهذه الصعوبة..

ولم أدرك مدى قسوته حتى اختبرته.. رغم آلاف المرات التي حلمت به فيها.

وأظنني لن أنسى كلمات المأذون التي ساقها لي وكأنما يلقي درسًا حفظه عن ظهر قلب..

- استهدي بالله يا بنتي.. ليه عايزة تخربي بيتك..

ومجدي يرد عليه بصوت عاقل مستسلم:

- قولّها حضرتك.

- يا بنتي إذا كان في حاجات مزعلاكي هيحاول يصلحها.. بس الطلاق ده أبغض الحلال عند الله.

- أنا مستعد أعمل كل اللي هي عايزاه.

وكنت أرد بحزم حاولت أن أجعله هادئًا رغم الحركات الإيقاعية المتتالية التي كنت أشعرني أقوم بها برأسي أميل به إلى الأمام وأعود

مرة أخرى، ولم أكن أقدر على إيقافها:

- خلاص حضرتك الموضوع نهائي.. ربنا ميرضاش بالعيشة دي.. ربنا ميرضاش إني أفضل أدعي على نفسي ليل نهار علشان أموت، ولا إني أفضل أدعي عليه، أنا مش عايزة أكره حد تاني ولا أدعي على حد ولا على نفسي تاني.. كده كفاية.

- فيه أولاد؟

- كان فيه بنت.. وماتت..

وانتبهت إلى القسوة التي أخبرته بها بموت "نور"!

ماذا حدث لي؟

وكيف أصبحت بهذا الجفاء؟

أشعرني كأنني أرضٌ قاحلة احترقت بما فيها مائة مرة.

أسمع جرس الباب يدق الآن، وأسمع صوت جلبة بالخارج، وأميز صوت "مريم" إبنة أختي، ويُطرق الباب وتفتحه أمي لتعلمني بقدوم "رغدة" و"مريم"..

وتمتلئ الغرفة بوجوههم التي أحبها، تفتح أمي الستائر وكأنما اتفقوا على أمر، ويغمر دفء شمس الشتاء أرجاء الغرفة، وتجلس "مريم" بجانبي، لتزيل خصلات شعري من على وجهي، وتجلس "رغدة" على الكرسي المجاور لفراشي.

رغدة: وبعدين بأه.. مش كفاية كده؟

أمي: يابنتي ربنا أكيد رايدلك الخير، ونحمد ربنا على كل اللي يجيبه.

رغدة: يلّا قومي.. هنخرج انهارده نروح أي مكان تحبيه.

مريم: نروح سينما..

رغدة: ماشي نروح سينما.. في ايه أفلام يا "مريم"؟

مريم: فيه فيلم "كلمني شكرًا" بيقولوا حلو أوي.

رغدة: مش ده اللي فيه الممثلة بتاعت "حين ميسرة" ماتشوفوا حاجة تانية.

مريم: عمرو عبد الجليل فيه بيقولوا رهيب.. قومي بأه يا طنت "راوية"..

وتساعدنني للقيام من مرقدي، لا أعرف كيف أصبحت واهنة إلى هذه الدرجة؟ أشعر دوارًا في رأسي وكأني أسير في عالم غير عالمي الذي عرفته.. ماذا حدث كي أصل إلى هذا القدر من الضعف والغلب؟

تذكرت كيف تقدم لي وكيف تزوجته، لا أعرف لماذا تدق الذكريات باب عقلي بهذا الصداع،؟ تذكرت كلمات أمي وقتها:

- أدينا جربنا اللي حبناه.. خلينا نجرب اللي بيحبنا..

لم أكن أتصور ساعتها أن ينتهي بي الحال مستندة على الأذرع كي أصل إلى الحمام.

شاهدنا الفيلم، وحاولت قدر استطاعتي أن أركز في مشاهده، ولم أقدر.. ولم أكن أنتبه إلا حين تنفجر السينما ضاحكة من مشاهد الكومبارس الظريف فيه.. وأبتسم معهم محاولة أن أشاركهم، وإن لم أعرف على ماذا يضحكون..

في طريق عودتنا. سألتني "رغدة":

- هتعملي إيه بعد كده يا "راوية"؟

- أصدك على إيه؟

- أصدي في حياتك.. هتشتغلي ولا هتعملي إيه؟

- مش عارفة.. مفكرتش.

- هو ده اللي لازم تفكري فيه.. خلاص.. اللي حصل مكتوب والحمد لله على كل اللي ربنا يجيبه.. والحمد لله إن الماجستير بتاعك معاكي.

- وهشتغل فين؟ أنا نسيت كل حاجة.

- مش مشكلة النسيان، نفتكر من أول وجديد، وان كان على المكان في واحد زميلنا فاتح لسه مستشفى خاصة جديدة، وفيها عيادات، أنا واخدة فيها عيادة يومين في الأسبوع، لو تحبي تيجي معايا ونقابله، بيتهيألي عيادات الأطفال لسه فيها أماكن كتيرة، ولو تحبي أكلملك "منال".. تخصص الأطفال.. دفعتي.. تروحي تقعدي معاها شوية في عيادتها تفتكري اللي انتِ ناسياه.. ماشي؟

ترددت قليلاً قبل أن أرد عليها: ماشي..

تعجبني "رغدة" كثيرًا بطريقة تفكيرها وترتيبها للأمور، لم أعد أذكر إن كانت هذه طريقتها أم أنها أصبحت كما هي الآن بعد زواجها من "علي".

تكبرني "رغدة" بعامين، وتعمل طبيبة للأمراض الباطنية بمستشفى الحميات، ولها عملها الخاص، تبهرني بقدرتها على تنظيم عملها ووقتها وأداء واجباتها بغاية الإتقان.

عندما تقدم لها "علي"، لم تكن تعرفه من قبل، جاءنا خاطبًا لها، مصطحبًا معه أباه، ونادى أبي "رغدة" لتسلم على الضيوف، ودخلت هي الحجرة يومها وسلمت عليهم ثم جلست إلى جانبه، وكأنها تعلن موافقتها حتى قبل أن تفكر.. وظللنا نتندر بما فعلته يومها ونتضاحك

بحكايتها، وحتى الآن.

وكما تثير "رغدة" و"عليّ" إعجابي، كذلك يثيران غيظي، فهما وكأنهما كيان مستقل عنا، لا نعرف عنهما الكثير من أمورهما، وقد نظن بعض الوقت أنهما يخفيان شيئًا رغم أننا لم نعرف أبدًا أن لهما وجهًا آخر غير ما يحدثاننا به، لكن إستقلالهما وقوتهما يوحيان دائمًا بعدم احتياجهم لآخرين، وقد يوحي تكتمهما باستغنائهما عنا.. وإن لم يفعلا.

وانتظمت في الحضور مع "منال" في عيادتها الخاصة، ولم أكن أذكر شيئًا من كل ما تعلمت، وكنت أتعامل مع الأطفال في البداية وكأنني لم أحمل طفلاً في حياتي.

خالطني طيف "نور" في البداية، تذكرتها في وجه كل طفل رأيته في أيامي الأولى، ثم أصبحت أرى وجوه الأطفال الآخرين، وأعود إلى البيت فأذاكر وكأنني لازلت في الكلية، لم أكن أريد أن أفشل في أي خطوة مقبلة في حياتي.

ولاحقني السؤال الذي صرت أكره الإجابة عليه: إنت متجوزة يا دكتورة؟

وكنت في البداية أجيب، ويتطور السؤال إلى حكاية، ثم أصبحت أتحايل على الجواب، ثم وجدت أن الأسهل أن أضع في إصبعي خاتما يشبه خاتم الزواج، وأن أشيح برأسي بعيدًا وقتما أشعر أن السؤال على وشك أن يُطرح، وأن أغير الكلام.

وأخذت عيادة لخمسة أيام في الأسبوع في المستشفى التي دلتني

عليها "رغدة"، ورغم أنني كنت أقضي وقتًا طويلاً فيها، إلا أن وقتًا أطول كنت أحتار في ملئه..

حادثتني "نادية" أخت "مجدي" عدة مرات لتطمئن عليّ، ودعتني لحضور أنشطة الجمعية الخيرية التي ترتادها، لكنني اعتذرت، رغم رغبتي في صحبتها، لم أكن أريد أن أقترب من جديد.

وشاركت في أنشطة جمعية أخرى كانت تداوم على حضورها جارتنا "زينب" والتي لم تكن تنجب أطفالاً، وتعيش مع زوجها في الشقة المقابلة لشقة والديّ، وذهبت معها إلى أماكن لم أكن أتصور وجودها في مصر، ولم أكن أتصور مدى الفقر والبؤس الذي يعيش فيه الناس في هذه الأماكن والتي لا تبعد كثيرًا عنا!

وكنت أتعجب وأسألها: هل حال هؤلاء الناس هكذا منذ وقت طويل أم أنها أمور عارضة؟ وإن كانت منذ وقت طويل.. فلماذا لا نسمع عنهم ولماذا لا نشعر بهم؟

فتبتسم بحسرة: ياريت المجتمع كله ينتبه للناس دي لأنهم مش قليلين وبيزيدوا، إنت عارفة في القاهرة لوحدها حوالي ٨٥ منطقة عشوائيات ساكنينها حوالي خمسة ونص مليون بني آدم، ولا مية ولا صرف ولا خدمات ولا حاجة خالص، وفي مصر بحالها حوالي عشرين مليون بني آدم عايشين في العشوائيات دي.. يعني ثورة الجياع جاية.. جاية..

فأسألها: بس تفتكري يا طنت الجهود الفردية دي كفاية علشان تحل مشاكل بالحجم ده؟

وإلى جانب عملي ومشاركاتي المحدودة مع جارتنا صرت أبحث عن

أي مهارة جديدة أتعلمها، وأجلس ساعات إلى النت، أتنقل بين حسابي على كل المواقع، أبحث فيها عمن أتحدث معه.. وربما كنت أبحث فيها عن "خالد"، وأبتسم عندما أتذكره، وأبحث عن اسمه في الفيس بوك وفي التويتر.. وكأنني سألقاه مصادفة..

أضفت بعض الأسامي لحسابي من ناس بعيدين عني، لم أضف أحدًا ممن أعرف معرفة وثيقة، كنت أخاف أن يسألني أحدهم عن حالي وعن زوجي ولا أقدر على الإجابة، وكنت أفكر كثيرًا في خجلي من حالي، مع أني لم أرتكب فعلاً أخجل منه.

ولماذا تخجل المطلقة من حالها وتتدارى به بينما يجاهر به الرجل وكأنه ضحية، وأعلم أنه لا يعيبني طلاقي ومع ذلك أتعثر في كلمات أخفي بها حالي..

وصار حسابي الخاص على الفيس بوك مهجورًا، وأدخل بين الفينة والأخرى إلى تويتر.. ربما لأعرف الأخبار.

لكن مواقعًا أخرى هي ما أخذت انتباهي وجذبتني، صرت أبحث عن صديق أحدثه.. كتبت كلمة صديق بالعربية والإنجليزية وأدْخلتني إلى عدة أماكن تصورت أن آخرين مثلي يبحثون فيها على نفس المعنى الذي قصدته.

وأخذت عدة أيام لأدرك أن هذه المواقع ليست إلا أماكن للعلاج الجنسي وليس النفسي، وتطلب الأمر مني بعض المواقف المضحكة وأنا أحدث آخرين عن بعض الأمور ثم يتبين لي أنهم يعنون شيئًا آخر غير ما قصدت، وتماديت في بعض الأحيان أشبع إحساسًا فقدته بأني مرغوبة وبأني إمرأة..

وتقلصت حياتي إلى ثلاثة أمور؛ عملي بالمستشفى والخروج منها لأي درس أنتقيه ثم العودة إلى المنزل والجلوس على النت أقلب في نفس الصفحات التي أقلبها كل يوم، وأفتح المدونات وأستمع إلى الأغاني.

وصرت أحسّني وكأني مخلوق محايد لا أنا بالمرأة ولا أنا بالرجل.

أستمع إلى حكايات مريضاتي وصاحباتي ولا أتفاعل إلا بقدر ما تتطلبه اللباقة الإجتماعية، وصرت أتنقل مابين الكورسات المختلفة أتعلم مبادئ كل منها كتنسيق الزهور، ووسائل الدفاع عن النفس، والخط العربي..

واستهوتني بعض الصفحات السياسية وان لم أدمنها، شدّني حضور الدكتور "البرادعي" إلى مصر، وبدأت أفكر ولأول مرة في حياتي في أحوال البلد السياسية، فدراسة الطب تحتل طالبها إحتلالا أبديًا، لم أجرؤ أن أفكر أن يتغير "مبارك"، ولكنني حلمت كمن كانوا يحلمون أن يقل اللصوص، وأن يقل الفساد، وأن ينصلح حال البلد ولو قليلًا..

وبدأت أسأل عن انتخابات مجلس الشعب، وأتابع وقائع جلساته، وخاصة ما كان منها مناهضًا لبناء الجدار العازل بين مصر وغزة، وأستيقظ من نومي صباحًا أتحسس الأخبار على شاشة الكمتور..

ماذا حدث لأسطول الحرية المبحر إلى غزة.. كم من النشطاء قتل.. وكم منهم بات مجروحًا.. هل عادوا إلى بلادهم.. وكيف حال الأهل في غزة.. وكيف سارت الانتخابات الثانية في العراق.. ولماذا استهدفت الانفجارات هناك السفارة المصرية.. وكم من الأشقاء سقطوا ضحايا..

وربما كنت أتجنب مشاهدة أية فيديوهات أو أخبار عن حال مصر،

أو حال شرطتها، أو حال مواطنيها، أو نشطائها.. حتى طالعنا في أحد أيام يونيو ٢٠١٠ الحزينة وجه كالقمر استحال حطاما.. وجه "خالد سعيد".

ولم أكن حتى ساعتها مدركة في أي زمن نعيش ولاكيف أن الأرض تميد تحت أقدامنا، وكنت في البداية أخشى أن أقرأ هذه الأخبار عنا، وعن قسوة رجالات شرطتنا، وعن فساد إداراتنا، وفساد مصالحنا، وإن كنت أتعامل مع كل ملامح الفساد هذه كما تعاملنا من قبل مع التوصيات والمحسوبيات في كليتنا أيام الدراسة، وكأنه القدر الذي لابد أن نرضى به.. لأنه قدرنا.

وبدأت أتابع أخبار الناس في مصر بعد أن كنت أتجنب أن أسمع تفاصيل جراحنا، بل وصرت أتتبع فيديوهات الظلم والقهر على اليوتيوب.. وأشاهدها بدل المرة عشرات.. وكأني كنت أعاقب نفسي بما يعذبها.

وبدأت أتتبع خطوات الرافضين على الصفحات الإلكترونية، وانضممت إلى صفحة "كلنا خالد سعيد" فور ظهورها، وتجرأت أن أرد على مايرد فيها، وبعد كثير من الشتائم التي كان يكيلها لي أصحاب الأسماء المشبوهة التي لا معنى لها ولا صورة.. عرفت أننا ندور فيما نتصور أنه العالم الكبير.. لكنه في الواقع زنزانة ضيقة محكمة الجدران والنوافذ والألوان.. ابتلعتنا بداخلها وكأننا غرقنا في بطن بير..

وأعود وأتذكر "خالد" في زنزانته..

أتذكره كثيرًا، ولا أعرف لماذا تقودني كل الأحداث حولي إلى التفكير فيه؟ هل لأنه لا يوجد أحد آخر غيره يحتل عقلي؟

***

خروج الحقيقة أمام أعيننا يجردها من الرهبة، يجعلنا نتناولها، تطالها أيدينا، نزيح الأغطية المعتمة التي تغلفها، تتقلص إلى حجمها الطبيعي، فنراها كما يجب أن تكون، دون خوف أو وهم.

خالد

بعد شهور قضيتها حبيسًا في منزلي زاهدًا في الحياة، لا أرغب في رؤية أحد ولا أقوي حتي علي الكلام، متكتمًا خبر خروجي من السجن عن كل الناس بمساعدة "مصطفى" وكذلك أمي و"غادة"، لم يصدق "مصطفى" أذنيه حينما طلبت منه أن أري "عمر سالم" و "حاتم عبد الله " أصدقاء العمر، رفقاء الدراسة والحي.

كان من السهل عليه العثور عليهما فقد كانا دائمي السؤال عني، لم تتغير ملامحهما عن ذي قبل غير أن "حاتم" ازداد وزنه كثيرًا بعد زواجه و"عمر" تساقط أغلب شعر رأسه فلم يسعه سوي أن يجهز علي ما تبقي منه وحلقه فصار أصلعًا تمامًا.

نظرت الي وجهيهما، شعرت أنني كبرت ورحل بي العمر في سكون الوحدة والعزلة حتي ألقاني غريبًا بلا أسرة ولا حبيبة ولا عمل.

رأيتني في عيونهم، أحمل نفس ملامحي القديمة بمسحاتٍ من البؤس والهم ازادت يومًا بعد يوم.

بكيت في أحضانهما، بكيا كذلك، وكأننا نتحدث من خلال عبراتنا، وانتهينا للحظة صمت وجيزة اتبعناها بابتسامات سرعان ما تحولت لضحكات خرجت من أعماقنا، أزاحت الكثير من همومي، وحلّت عقدة لساني، تحدثت كثيرًا عن ذكرياتنا المشتركة وأسقطت ذكرياتي الخاصة في بئر عميق.. لم أقترب منه كي لا أغرق من جديد.

عمل "عمر" في مجال السياحة بالرغم من تخرجه في كلية الهندسة، كان عاشقا للتاريخ القديم والحضارة الفرعونية، يحفظ حكايات الأسر الحاكمة وقصص الملوك وتستهويه أسرارهم، حصل علي دبلوم في الإرشاد السياحي، وعمل مرشدًا سياحيًا باللغة الإيطالية .

أما حاتم فقد عمل في إحدي الشركات العالمية في مجال البرمجة والإلكترونيات، كان حلمنا في المدرسة الثانوية أن نلتحق بكلية الهندسة، وتحقق حلمنا، وأكمل حاتم دراسة الكومبيوتر بينما إلتحقت بقسم مدني نزولاً على رغبة أبي الذي توفي قبل أن ينعم بما خطط له .

كانا شاهدين علي قصة حبي الوحيدة، وفتاتي الأثيرة، ذكرياتي معهما أيام الكلية جزء من ذكرياتي معها، كانت حبيبتي و لازالت، نظراتهم كانت تخفي شيئا، خاصة "حاتم"، لم أقوَ علي سؤاله إن كان يعرف عنها أية أخبار، أو رآها قريبًا، إن كانت تزوجت وأنجبت، إن كانت عادت من عُمان مع أسرتها أم لازالت هناك .

ازدحمت رأسي بالأسئلة، كادت تنفجر وأَبَي لساني أن يسألهما فيأخذاني الي عالم المجهول بشأنها، راودني أمل أنها تذكرني، وتحول الأمل الي أمنية أنها تنتظرني، وأفقت من شرودي علي صوت يشبه الدق علي حديد الزنزانة، كان عمر يقلب الشاي بالملعقة ويطرق حافة الكوب طرقًا منتظمًا، ينظر لي ويصيح كأنه في عالم آخر:

- إيه ... خالد ... رحت فين ..

***

في هذا الوقت من العام وفي شهر يونيو بالتحديد تقل الأعداد الوافدة علي الفندق الذي عملت به في شرم الشيخ.

ساد الهدوء شاطئ البحر وحمام السباحة وصالة الاستقبال وصالات الطعام، قمت بعملي المعتاد من حجز الغرف وتأكيده وتسكين النزلاء، كان هذا هو العمل الذي وجدته مناسبا لي، دلني عليه "عمر" صديقي المرشد السياحي، وجدته عملاً خفيفًا، مختلفًا، مربحًا، بعيدًا

عن عيون من يعرفونني وتلاحقني نظراتهم.

ارتبكتُ كثيرًا، دارت الدنيا بي حتي ظننتني سأسقط علي الأرض، مددت يدي في قلقٍ أتحسس الكرسي خلفي، شددته قليلاً، ألقيتُ نفسي عليه، حاولت تثبيت أصابعي المرتعشة المسكة ببطاقتها الشخصية، قرأتُ اسمها الثلاثي عدة مرات، دققتُ في تفاصيل وجهها بعمق، أعدت البطاقة لرجل يقف أمامي، في بدايات الأربعين من عمره، قمحي اللون، متوسط الطول، تبدو عليه الطيبة والأبوة، وتخالط نظراته الدهشة من ردة فعلي.

جاهدتُ نفسي لأقف، وابتلعتُ روعي لأتحدث بصوت مختنق واهن، عرفت أنه بصحبة أسرته، زوجته المهندسة وأبنائهما الثلاثة، وأنهم سيقيمون معنا لمدة أسبوع كامل، وسيشاركون الفندق برنامجه الترفيهي والسياحي لزيارة معالم شرم الشيخ، حجز غرفتين، وطلب مني أن أضيف سرير رضيع بغرفته، وأن تطل الغرفة علي حمام السباحة ليتمكن من ملاحظة الأبناء من الشرفة بينما يستجم مع زوجته في غرفتهما، أعدت له البطاقات وتمنيت لهم وقتًا ممتعًا.

راقبتُ خطواته وهو يتجه ناحية زوجته، وبدت لي من بعيد، مد يده بحنان يساعدها علي الوقوف بينما حملت بين يديها طفلها النائم، لم تتغير، امتلأت قليلا وبدت الأمومة عليها، وإلتف حولهما ولدان طويلان تتراوح أعمارهما بين السابعة والعاشرة، يحملان حقائب خفيفة علي ظهريهما، ويسرعان في المسير.

مروا جميعا من أمامي، لم تلتفت لي، كانت منشغلةً تمامًا بأبنائها، ترتدي حجابًا صغيرًا ونظارة شمسية سوداء، ظللتُ أراقبها حتي

إختفت عن ناظري، وبقي خيالها في عينيّ، يُحيل كل الوجوه التي أراها لتصبح وجهها، لم أرَ غيرها، أكملتُ فترة عملي وأنا مشتت الفكر لا أملك القدرة علي التركيز، حتي انتهيت، وصعدتُ الي غرفتي، أغلقت الباب والستائر، ورحتُ في نوم عميق.

اختلطت الأحداث الحالية مع الأحداث الماضية في حلم أشبه بكابوس مزعج، رأيت كل الاشخاص الذين مروا بحياتي، وجوههم قريبة، معالمها كبيرة، كأنها الحقيقة لحظة الاكتشاف.

عشت بكل الأماكن التي زرتها، تداخلت وتشابكت حتي شعرت أنني أحيا بها جميعها، يحيطها من الخارج سياج حديدي يشبه حديد الزنزانة وأركان أربعة تشبه أعمدة المسجد الذي اعتقلوني به، أستيقظت أصارع الجميع، وأصرخ وحدي كخارجٍ من أعماق البحر بعدما أوشك علي الغرق.

***

اليوم بالتحديد عيناي زائغتان، وقلبي يدق باضطراب، تسري بجسدي رعشة خفيفة، أترقب باب المصعد كلما يفتح، وأنظر للممر الجانبي كلما أسمع وقع خطوات به، كنت أنتظر أن أراها عن قرب، وتمنيت لو تحدثنا فأسمع صوتها المحفور في أذنيّ واقعًا يطربني.

هي حبيبتي، حُرمت منها وأنا اقتسم معها حلمي وأبني بيديها آمالي، حُرمت منها وما انتظروا حتي أودعها وأمنحها الوعد برجوعي أو أُخيّرها لتتركني، سلبوها مني وسلبوني منها، بعدت وروحي معها، ودقات قلبي تتبعها، وغامت الرؤيا في ضباب ابتعادها، وأمطرت السماء حبات أنين.

مر يومان وهي في حجرتها لا تغادرها، وأنا علي حالي من الترقب، وفي اليوم الثالث ظهرت أخيرًا، إقتربت، اقتربت أكثر، خفق قلبي بشدة حتي كاد يتوقف وهي تحملق في وجهي بنظرة ثابتة أعرفها وهمست لي:

- صباح الخير.." خالد"!
- "مها".. مدام "مها".. حمد لله ع السلامة.
- حمد لله علي سلامتك إنت.

طالت نظرتنا التي إمتلأت بالأسئلة، ولم ننطق بحرف واحد، كانت أقدر مني علي تحمل الموقف، ربما عاشته في خيالها من قبل، ربما تأقلمت علي الحياة بدوني، ربما استطاعت أن تنساني، وربما أحبت زوجها..

و بقي الشئ الأكيد أننا لا نحيا نفس الزمن، تحيا في الحاضر و أحيا أنا في الماضي، أدارت رأسها يمينًا ويسارًا كأنها تبحث عن شئ ما، ثم نادت:

- "خالد".. تعالَ سلم على عمو.. ده "خالد" ابني الكبير عنده تمن سنين.. وده "عمرو" سبع سنين.. أما ده بقي آخر العنقود "مهاب".
- أهلا حبايبي.. ربنا يخلي يا "مها".
- إزاي طنت و"غادة"؟
- الحمد لله.. بخير.
- وازيك إنت يا "خالد"؟
- الحمد لله.

كان من الضروري أن ألقاها لأعلم أن حبيبتي لم يعد لها وجود إلا في خيالي، وأن الحياة تطبع علينا أحيانا لونها، وتصبغنا بصبغتها..

شدني لها حنيني..

بحثت عنها بين ملامحها فلم أجدها..

من رأيتُ اليوم ليست هي.. إنما إمرأة تخفي حبيبتي بداخلها.

لم أكن أحتاج لصدفة أصدق من هذه تهديني إلي اليقين.

كل ما تجنبت السؤال عنه لكي لا أعلمه.. علمته، وكل ما تحايلت عليه لكي أجهله.. انكشف أمامي كأوضح ما يكون.

هي وأسرتها، زوجها، أبناؤها، ثباتها، هدوؤها، فتورها، نظرة الرضا في عينيها، ونبرة التسليم في صوتها.

تعافت من حبي، ازدحم قلبها بحبٍ غيره، ربما أكبر منه، آن لي أن أهدأ، أُبقيها بقرار ذاتي، بعمقي ونبضاتي، حبًا بداخلي، ولترحل هي..

سأعودُ لها ألقاها.. وتعود هي تنساني..

***

ما بين الحين والآخر، ألتقي "عمر" بصحبة بعض الأفواج التي تأتي لزيارة شرم الشيخ، ذهبت ذات مرة لعمل السفاري معه، نعمتُ بالطبيعة بعيدًا عن الحضارة بأعبائها وتكاليفها، احتضنت الأرض بجسدي وتمنيت أن أفني بها فأعودُ حباتٍ من تراب، غرقت في الرمال الساخنة فتخلل الدفء عظامي، عشقت رائحة الصحراء ورائحة الشواء، سحبني الكون الرحيب بعذاباتي، شاركتُ سهرات السمر علي ضوء القمر، تجولت بين الملامح واللهجات، وعدت إلي الفندق إنسانًا آخر غير الذي تركه منذ أسبوع واحد، وكأنني ولدت من جديد.

وكعادة الحياة معي، تأبي أن تمنحني السعادة سوي للحظات قليلة، عدتُ إلي الفندق، غادرت السيارة التي أقلتني إلي باب الدخول

الرئيسي، جررت حقيبتي معي داخل الباب الزجاجي الدائري، بدأ الباب يدور بي، وفجأة.. تسمرت قدماي.. إنه هو.. ضابط التحقيق الذي حقق معي في الشهور الأولى عندما اصطحبني فيها جنود الأمن المركزي الي أمن الدولة.

كانت "مها" تنتظرني لنذهب للسينما، وكان "عاطف" في ذاك اليوم يَؤمّنا في المسجد القريب من منزلنا، لم يكن هو إمام المسجد، ولم أكن أنا معتادًا علي الصلاة فيه، ولكن عاطف إعتاد ذلك في الفترة الأخيرة، أطلق لحيته، وإرتدي جلبابًا قصيرًا؛ يضع بجيبها الأمامي مسواكًا، ويمسك بيديه مسبحةً، يحضر دروس الشيوخ المترددين عليه، وهو الذي كان يصحبني قبل ثلاثة أشهر فقط في إحدي حفلات مطربنا المفضل "محمد منير".

اقتحموا المسجد فجأة، واعتقلوا كل من فيه، لم يتركوا أحدًا سوي بعض الأطفال الذين تسابقوا لإخبار الأهل بما حدث.

حل بي صمت مطبق.. لم أدر ماذا أقول.. أقول لست معهم فيثبت للشرطة أن لهم كيان؟ أقول أنني لا أعرفهم وأتبرأ من أخي؟

لم أنطق وهم يسحبونني من ملابسي ويلقون بي في عربة مصفحة سوداء اللون من الداخل والخارج، بها فتحات تهوية صغيرة عليها شبكات حديدية، تكاد تلمح بداخلها كتل بيضاء اللون متراصة علي جوانبها هم حصيلة اليوم من رواد المساجد المجاورة.

أطلقت لخيالي العنان محاولا تصور ما يمكن أن يحدث لي، تصورت أنهم بعد التحقيقات معي سيطلقون حتمًا سراحي وسيعتذرون لي عن سوء التفاهم الذي حدث، قلقت بشأن "عاطف" ولكني تيقنت

أنهم لن يجدوا شيئا يدينه وسيطلقون سراحه هو الآخر، ربما بعدي بعدة أيام ولكنهم سيفعلون.

أعددت بعض الردود، سأقول لهم إنني أجتهد للإنتظام في الصلاة، وأنني أحاول الإلتزام بصلاة الجماعة ولكنني غالبا ما أفشل، وأن أخي وجدني متأنقًا لأذهب مع خطيبتي للسينما فقال لي: إذن فلتصلِ المغرب في المسجد أولاً قبل أن تذهب. فصليتُ محرجًا منه..

ولكن ماحدث فاق كل التوقعات والخيالات، ما حدث لا يمكن للعقل البشري مهما إمتلك من قدرة علي التوهم والإبتكار أن يدركه، إنهم وحوش جبارون، قلوبهم لا تنبض، فارقوا الحياة منذ زمن بعيد ويعيشون بأجساد مجردة.

غربت شمس ذلك اليوم، واكتنف الوجود ظلام دامس، ولم تشرق حتي خرجت من السجن منذ عدة أشهر.

فقدت أخي وكرامتي.

عذبوني، قيدوني بالسلاسل وأحكموا القيد، ظلوا يتناوبون القوة في جذب السلاسل يومًا بعد يوم وأنا أسمع صوت عظامي تتشقق، وعضلاتي تتمزق..

سرت بجسدي آلام شديدة تستعيد ذكري ما شعرت به حينما رأيت وجهه الجامد، يرتدي ملابس عادية، تحيط به أسرته، زوجته وأبناؤه، وحمدت الله أنني لم أقم بإجراءات تسكينه بالفندق.

انتابتني مشاعر متضاربة، وددت لو انتقمت منه؛ لو سحبت سكينًا وغرزته في قلبه أو في عينيه، أو شددت وثاقه بحبل وصفعته علي وجهه أمام الجميع، أو خنقته بقوة حتي يتدلي لسانه..

ارتعد جسدي وأنا أتخيل عينيه الجاحدتين تحملقان بي، وجدتني أضعف من مجرد الفكرة، لا يمكنني فعل أي شئ، ولازلت خائفًا، أتلفت حولي في ترقب..

أغلقت الباب بالمزلاج الحديدي من الداخل كأنني أحتمي من لص هارب، هاتفتُ زميلي بالاستقبال من تليفون الحجرة بصوت هامس، سيقيم أربعة ليالٍ وخمسة أيام، أبلغتُ زميلي أنني مريض جدًا ؛ لن أتسلم عملي الآن، وربما تحسنت حالتي بعد خمسة أيام.

***

قضيتُ الأيام الخمسة في غرفتي، لا أبرحها، تطاردني الأحلام المزعجة والأفكار المؤلمة، وحيدًا كما كنت في غرفتي بالمنزل غير أنني محروم من أنفاس أمي ودعواتها، مشتاقاً لضمة كريم لأحضاني المتعبة.

كنت أحسب لأنفاسي ألف حساب فربما عرفها ذلك الجبار النائم في نفس الطابق، علي بعد خطوات مني، ربما رآني، ربما لمح ذراعي الضامرة أو حروق رقبتي..

كيف أخذني الأمان فلم أحكم إغلاق أزرار قميصي المفتوح وأنا أسير بجانبه..

ليلي مؤرق ونهاري حائر، كيف نسيت أنه يمتلك القوة ليراني من خلف الجدران..

كان الوقت يمضي ببطء شديد، وكانت حالتي أشبه ما تكون بحالتي بعدما خرجت من السجن مباشرة، لم يزايلني خوفي كما تصورت، كل ما اعتقدت أنه غاب عن ذاكرتي، عاد كأنني أزحت من فوقه غطاءً خفيف فظهر عن آخره..

كان قلبي يرتعد كلما سمعت طرقًا علي الباب من أحد العاملين في خدمة الغرف، أو أحد النادلين عند إحضاره الطعام لي..

تصطك أسناني، تهتز مفاصلي، فربما كان هو ليأخذني، شعرت أنني سأجن إذا استمرت حالتي هكذا..

أين أنتِ يا فأري الصغير؟

الفأر بداخلي يبحث عنك.. يشتاقك.. يحتاجك..

لماذا اختفيت كل هذه المدة؟

أنا أحوج ما أكون إليك هذه الليلة، فخوفي الآن يشبه خوفي يوم إلتقيتك..

وحدتي هي نفس وحدتي، وأنيني هو ذات الأنين.

تذكرت حديثها لي عندما انفجرت أمامي فبُحت لها..

حكيت لها فانطلق لساني،أخرجتُ من قلبي ذلك السجين الخائف.

خروج الحقيقة أمام أعيننا يجردها من الرهبة، يجعلنا نتناولها، تطالها أيدينا، نزيح الأغطية المعتمة التي تغلفها، تتقلص إلى حجمها الطبيعي، فنراها كما يجب أن تكون، دون خوف أو وهم.

تذكرت كيف قمتُ بعدها دون أن أدري، مدَدتُ يدي أزيح الستائر الكثيفة، وأسمح لنور الشمس أن ينفذ لأعماقي.

نظرت إلي الشارع، تفقدت الحياة، رأيت نبضها واختلاجها، المارة والوقوف، التعابير والأفعال، أحسست أنني أسمع همسات الشفاه، أتفاعل مع الكلمات، تدب الحياة في أرجائي، يتخلل النور جوانبي.

نطقت أخيرا بما أخفيت، وتحررت، بدوت خفيفًا نشيطًا، يمكنني الطير والتحليق، يمكنني النزول إلي الشارع والعبور إلي الجانب الآخر دون خوف.

تذكرتُ أيضًا كيف صمتت وأنا أحكي لها حتي حيرني سكوتها، تصورتها وهي تندهش من حديثي و تنصت باهتمام، شعرتُ أنها تكاد تراني وأنا أقاد الي المعتقل، مكبل اليدين خلف ظهري، معصوب العينين، كل شئ أمامي يتشح بالسواد، تتعاظم باقي حواسي لتعوض رؤيتي، أطرق السمع، تتحرك أذناي في كل مكان..

أستجيب بخطوات طائشة لوخز العصي الغليظة في جانبيّ، أُطرح أرضاً، أشعر بالرطوبة، أشم رائحة الغدر والموت والمجهول، أستند علي حائط بارد كلوح الثلج، أتوحد معه حتي تتجمد دمائي.

شعرت أنها رأتني هكذا فلم تكتب كلمة واحدة، راحت في سكون غريب، اعتقدتُ أنه ربما انتابها خوف مني، وظنت أنني متطرف، مُراقَب، مُخترَق، أو ساورتها في قصتي الشكوك..

ربما صدمها ما حكيت، ربما أبكاها، أحزنها..

لم أعلم غير أنني تحررت، وانتقلت همومي من قلبي إلي شفاهي، هانت كثيرًا.

كانت هي الأخري تتحرر من قيد سجانها، جاءتني فَرِحَةً بإنجازها فصددتها عني.

لماذا لم أدرك أنني حررتها بإخراجها عن صمتها كما حرّرتني بإخراجي عن صمتي؟

بعد انقضاء الخمسة أيام المقررة له، عاودتُ الاتصال بزميلي، ربما أعجبته الإقامة بالفندق فقرر أن يمدها، تأكدت أنه غادر.

فتحتُ باب غرفتي، نزلت بحذر، استلمت عملي بالإستقبال مجددًا،

أول شئ فعلته أنني نقلت جميع بياناته، اسمه بالكامل، عنوانه، بياناته الشخصية، بيانات أسرته، هواتفه..

وجدتني سعيدًا وأنا أطوي الورقة مرات عديدة وأضغط عليها كأنني أطبق علي رقبته، ثم أضعها في جيبي كأنني اعتقلته في زنزانتي، ولم أدر ماذا سأفعل بهذه المعلومات القيمة.

وانشغل بالي علي فأري الصغير، وتساءلت لماذا لم تتحدث؟ لماذا لم تعد تدق بابي؟ شعرت بندم عميق، وددتُ لو عادت تتكلم معي..

فتحت صفحات التواصلً الاجتماعي، أفتش في الأسماء دون جدوي..

أنتظر أن تجمعنا الأيام من جديد.

***

تغيير الحال ربنا اللي يقدر عليه، لكن إحنا اللي يخصنا نفسنا، وأنا الحمد لله غيرت الخوف اللي كان في نفسي.

راويـة

كنت أسير في ممشى التريض في النادي عندما تعالت أغنية هاتفي الجوال..

- آلو..

- "راوية" معايا؟

- أيوة مين؟

- أنا "طارق".

- "طارق" مين؟

ولم أدرك لأول وهلة أنه هو.. "طارق".. الذي أنفقت سنين طويلة من عمري أصحو على طيفه وأنام على حلم أن ألقاه.

- مش واخدة بالي.. معلهش.. مين بيتكلم؟

- "راوية".. أنا "طارق"..

وساد صمت للحظات قبل أن أرد بصوت لم أبذل جهدًا كبيرا كي أجعله هادئًا ثابتًا.

- أهلاً يا طارق.. إزيك.. عامل ايه؟

- أنا كويس.. وحشتيني..

وتعجبت من جرأته.. سكت لحظات ثم سألته:

- إنت جبت نمرتي من مين؟

- من "منال".. إنت ناسية إنها نفس تخصصي.. نفس تخصصنا..

وسكت قليلاً ثم أكمل: وعرفت منها إنك انفصلتي عن جوزك.

ولم أرد.. ولا أعرف لماذا شعرت بضيق شديد من "منال"، لماذا قالت له؟ ولماذا أعطته رقم هاتفي؟

- "راوية".. أنا عايز أقابلك..

- تقابلني ليه؟ عايز تعرّفني على زوجتك وأولادك؟ إلا صحيح إنت أولادك أد ايه دلوقتي؟

- عندي "نُهى" تلت سنين ونص و"حسن" و"حسين" توأم عندهم سنتين.. بس أنا مش متجوز دلوقتي.. أنا ونسرين انفصلنا عن بعض.

في طريقي إلى لقائه صرت أبحث عن ذلك الشوق الجارف في حكايتنا، أحاول أن ألملم أطراف العشق القديم، أضع كسرات الطوب الواحدة فوق الأخرى أحاول أن أبني تمثال الحب الذي كان، أحاول أن ألصق قطع الصورة المقطعة القديمة التي ذهبت الدموع التي سالت عليها بمعالمها.

ولم أحتج أن أنظر إلى وجهه كي أعرفه، يكفيني أن أرى هيأته التي كنت أعشقها، لم يتغير كثيرًا، تراجع شعره للوراء، بدا ممتلئًا، ابتسامته التي طالما أحببتها..

حاول أن يحتفظ بيدي في يده بعض الوقت، لكني لم أمهله، قررت بيني وبين نفسي ألا أسلم عليه مرة أخرى، جلست صامتة.

كان السماء ملبدة بالغيوم تنذر بمطر وشيك في هذا اليوم البارد من أيام ديسمبر، وكنت أحسب في عقلي كم من السنين غادرتنا من آخر مرة رأيت فيها "طارق" في أغسطس عام ثمانية وتسعين.. وأنا في سنة الإمتياز..

بدأ كلامه بجمل روتينية.. وحشتيني.. آسف إني معزتكيش في بنتك.. مكنتش أعرف.. كنت بحكي لمنال اللي حصل بيني وبين "نسرين" لما قالتلي على اللي حصلك.. البقية في حياتك..

وكنت أرد بكلمات أو بجمل قصيرة، ولم أنظر إلى وجهه. عندما سألته:

- خير يا "طارق".. إنت كنت عايز تقابلني ليه؟

- في إيه يا "راوية".. هو مش إحنا صحاب ولا إيه؟

- صحاب يعني إيه؟ مش فاهمة برضه؟

وسكت قليلاً ثم أردف:

- "راوية".. أنا لسه بحبك.. أنا آسف على كل اللي حصل.. أنا أغبى مخلوق في الدنيا.. وربنا عاقبني..

واندفع يحكي عن معاناته سنين عمره التى مضت، وكيف أن أمه أرغمته على الزواج من "نسرين" إبنة الدكتور "الشايب"، أشهر طبيب للأطفال في مصر وقتها، والتي كانت أمها قريبة أمه، وكيف أنه قضى سنينه معها يكتوي بنير تسلطها ومعاملتها السيئة له أمام أمه وأمام أبنائهما..

وتذكرت "مجدي" وحكاياته عن زوجته الأولى..

غريب.. هل هي قسمتى أن أرث النساء المتسلطات في أزواجهن؟ أم أنها حجة كل الرجال؟

وانتبهت لأجد "طارق" لازال يحكي عنها.. وكيف أنه لم يحتمل في النهاية يوم عيّرته أمام أمه أنه لا شئ من دون عيادة والدها التي يشاركه فيها الآن، وأنه لا يملك عليها سلطان، وأنها حرة تذهب لأي مكان تريد في أي وقت تريد، وكيف أنه حذرها من أنها لن تصبح زوجته لو أنها خرجت من باب البيت.. وكيف أنها خرجت.. وكيف أنها أصبحت طالق..

لم أستطع أن أرد بكلمة على طوفان الحكايات التي حكاها "طارق"، ولا أعرف لماذا لم أنفعل أو تهتز عضلة في وجهي، ولماذا لم أفرح؟ أوليس هذا ما حلمت طوال العمر به؟

أخذت طريقي من فندق "ماريوت" في الزمالك حيث إلتقيت "طارق" إلى بيتنا في "منيل الروضة" سيرًا على قدمي، لم أقبل دعوته لي أن يصطحبني للبيت، وعند فراقنا خبأت يدي خلف ظهري كي لا أسلم عليه مجددًا.

وجدت "رغدة" و"علي" وأبناءهما في زيارتنا، جلست صامتة لا أتكلم.

قام "علي" - وكأنه شعر بحاجتي للكلام مع أمي و"رغدة" - وقال: أنا رايح أصلي المغرب في الجامع يا عمي، تحب حضرتك تيجي معايا.

وعند انصرافهما، سألتني "رغدة": مالك؟ فيه إيه؟

أجبتها بهدوء وأنا أنظر لقطرات المطر وهي تتساقط على زجاج النافذه: ده "طارق".. رجع تاني.. وانفصل عن مراته.. وعايزنا نرجع لبعض..

رغدة: منال حكيت لي عن حكايته.. ومامته موقفها إيه؟ ماهي سبب المشكلة الأولانية؟

أجبتها: مقالش عنها حاجة.

فسألت أمي: هو معاه أولاد؟

قلت: معاه تلاتة.. صغيرين.. توأم سنتين وبنت تلاتة..

وردت أمي بأسى: لا حول ولا قوة إلا بالله.. طيب ليه كده بس.. والأولاد دول ذنبهم إيه؟

أجبتها: بيقول إنها ست متوحشة وقليلة الأدب.

نظرت إليّ "رغدة" وسألتني: وانت رأيك ايه يا "راوية"؟

أجبتها بصوت متعب: مش عارفة.. أنا مش حاسة حاجة خالص.. إنتم رأيكم إيه؟

رغدة: ما تديله فرصة.. محدش عارف الخير فين.

نظرت إلى أمي أنتظر رأيها، فقالت: سبحان الله كل شيء بأوانه.. لو فيه خير يقدمه ربنا..

تعللت بتعبي وتركتهما ودخلت غرفتي، واستلقيت على فراشي.. ولم تمض لحظات حتى لحقت بي "مريم".

جلست إلى جانبي، وأخذت تمر بيدها الحانية على رأسي..

- تحبي نلعب لعبة الكلمات سوا يا طنت "راوية"؟
- فاكرة يا "مريم" اللعبة بتاعت الغابة والبحيرة؟
- أيوة طبعًا فاكراها؟ تحبي نلعبها؟ بس انتي عرفتيها خلاص..
- بس أنا ناسية معانيها وناسية كمان أنا قلت ايه ساعتها.
- بس أنا فاكرة.
- طيب.. ايه رأيك تلعبيها معايا تاني؟
- ماشي.. أول حاجة كانت الغابة.. إنت في غابة كبيرة إوصفيها..

أغمضت عينيّ وأحسست بدفء شعاع الشمس يتخلل الأشجار الطويلة التي لا أرى قمتها، ويفترش الأرض العشب الذي بات مصفرًا كأننا في أواخر فصل الصيف وتتكسر الأوراق الجافة تحت قدمي وأكاد أسمع صدى أصوات الطيور العالية..

قاطعتني "مريم": مين معاكي فيها؟

- مش شايفة حد..

- برضه؟

- لأ.. بس أنا عارفة إنكم موجودين .. يمكن رايحالكم.. يمكن كنت معاكم..

- طيب.. وبعدين قابلتي دب.. إوصفيه..

ضحكت وأنا أقول:

- أيوه.. أنا فاكره الدب ده.. بس على العموم.. أنا شايفاه أبيض وقطبي.. وأليف..

- وبعدين البحيرة..

- مش فاكرة البحيرة دي كانت بتاعت إيه.. على العموم.. أنا شايفاها قدامي.. ممتدة.. والمية رايقة.. والجو شوية بارد.. والدنيا الصبحية..

- ومين معاكي؟

- محدش.. مفيش حد موجود.. وانا واقفة بعيد شوية وخايفة أقرب.. هي البحيرة دي كانت بتاعت إيه يا "مريم"؟ أيوه إفتكرت..

وسكتنا بعض الوقت ثم أكملت: أنا متفرجتش على صور رحلة الواحات اللي عملتوها.. هي معاكي؟

- أيوه معايا.. وفيها على فكرة صور للبحيرة اللي هناك..

وجلسنا نقلب في صور رحلتهم للواحات البحرية، وأعجبتني صورة كالحلم لبحيرتها، وقلت لمريم: شايفة.. أهي دي البحيرة بتاعتي.. وفاضية كده برضه..

وطالعتني على مشارف العام الجديد أحلامٌ تمنيت لو تحققت، غير

أن أول أيام عام ٢٠١١ كانت وجعًا في قلب كل مصري، حيث أطلت علينا بتفجيرات "كنيسة القديسين" بالأسكندرية، ولم تمض عدة أيام حتى انضم "سيد بلال" المنتمي إلى الجماعة السلفية بالأسكندرية إلى زمر شهداء تعذيب أمن الدولة..

شهيد جديد من شبابك يا مصر..

وجرح غادر في قلبك جديد..

وتذكرت "عاطف" وحكايات "خالد" عنه..

وتذكرت "خالد".. وتمنيت لو أطمئن عليه.. ماذا أصابه.. وماذا فعلت به الأيام..

وعاد الحال بيني وبين "طارق" كما كان أيام زمان، يحادثني على الهاتف في الصباح من سيارته عند ذهابه إلى عمله، ويحادثني في اليوم عدة مرات عند تنقله من مكان لآخر، ويحادثني في المساء وهو في طريق عودته إلى بيته.

وتلاقينا عدة مرات، بل وأخذ عيادة في المستشفى الخاص الذي أعمل به مرتين في الأسبوع في مواعيد قريبة من مواعيد عيادتي كي نتقابل، ولم أفهم لماذا أصر على ألا أعلم "منال" باستئناف علاقتنا، وتحجج بأسباب واهية لا تزيد عن جملة أو جملتين مثل "داري على شمعتك تِئيد".. ولم أفهم..

وكنت كمن قرر أن يغيب عقله عن التفكير فيما يحدث، وحملت نفسي على تقبل ما هو متاح لي وأن أرضى به، فلم يعد الحال كما كان، ولم أعد في موقف يسمح لي أن أضع شروطي أو أن أعترض على أشياء

لا أجد لها تفسيرًا.. وما أكثر هذه الأشياء التي كانت تحدث معه ولا أعرف لها سببًا..

في البداية كان يتحدث عن حضوره هو ووالدته لخطبتي، ثم تقلصت وعوده إلى الحضور مع عمه، ثم بمفرده، ثم أذهلني آخر مرة تقابلنا فيها برغبته في جعل زواجنا في محيط أسرتي وألا يعرف عنه أحد.. وتعلل بأبنائه الصغار، وبجبروت أمهما، وبخوفه أن تترك له الأبناء وتمضي!

وكنت في كل مرة أثور وأغضب ليعود يلاحقني بأحلام القصة القديمة التي احترقت.. وكأننا نمارس طقسة يومية لإعادة الروح إلى جسد مات وتقبلنا فيه العزاء.

أما أن يصل بي الحال أن تصبح حكايتي معه والتي كانت نجمًا أطالعه في حياتي كل ليلة مائة مرة.. أن تصبح الآن مسخًا كُتب عليه أن يبقى طي الكتمان..

"خالد"..

نطقت اسمه دون أن أعي وأنا أطيل النظر إلى صورة بحيرتي الكبيرة التي أهدتنيها "مريم" وعلقتها على حائط غرفتي..

"خالد"!

كيف راح عن بالي طوال هذا الوقت؟ وكيف نسيته؟ ولماذا أتذكره الآن؟

جلست إلى الكمتور أبحث عنه، تاه مني عنوانه البريدي الذي كنت أحادثه عليه، بحثت عنه على صفحات "الفيس بوك"، كتبت اسم "خالد" وصرت أبحث في مئات الأسماء.. ولم أعرف عن ماذا أبحث،

فأنا لا أعرف شكله ولا أعرف اسمه ولا أعرف له عنوان..

وفكرت في ما كان بيننا.. وكتبت اسم "الفأر المحروق" ولم أجد..

وجدت فأرًا آخر.. تمنيت لمّا رأيت الاسم أن يكون هو "خالد"..

وجدت "الفار العوّام"..

أرسلت طلبًا للاضافة وجاءتني الموافقة فور إرساله.. وأضاءت علامة الرسائل تشير إلى ورود رسالة جديدة.. فتحتها.. لأجد "الفار العوّام" يقول:

- "راوية"..

- هل أنت..

وسكت.. وانتظرت..

- نعم أنا "خالد"..

- الحمد لله إنك حاطط الفار.. بس ليه لسه فار..

- علشان تلاقيني.

وشعرت بسعادة غامرة زادت وأنا أرى جمله القصيرة التي أعرفها تحكي ما حدث له في الشهور الماضية، خروجه من سجنه، وأصدقاء عمره وعمله الجديد و"مها" "والسجان"..

أقاطعها بحكاية ما حدث لي عملي الجديد ومرضاي وصاحباتي، لكني لم أحك له حكاية "طارق"، واستغرقنا الوقت حتى انتبهت إلى صوت آذان الفجر من الجامع القريب من بيتنا.

- ياه.. الوقت خدنا.. الفجر بيدن.

- طيب هستأذنك علشان ألحق الصلاة مع زمايلي.

- طيب. أنا كمان هقوم أصلي.. بس .. كنت عايزة آخد رأيك في حكاية كده.. ممكن بكرة زي انهارده نتكلم.

- اتفقنا.. بكرة زي انهارده.. سلام.

- على فكرة يا "خالد" أنا هروح بكرة المظاهرة اللي معلنين عنها.. دي أول مرة أروح حاجة زي كده.

ولم يرد خالد، ولم يرَ رسالتي الأخيرة.

***

لم يكن قرارًا سهلًا أن أكون هناك..

قرأت دعوة هذه المظاهرة على صفحة "كلنا خالد سعيد".. اليوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير يوم "عيد الشرطة".. لا أعرف أحدًا ينتوي الذهاب، الساعة قاربت الثانية عشرة ولازلت مترددة، حادثت "رغدة" على الهاتف وسألتها:

- إنتم نازلين المظاهرة بتاعت انهارده؟ أنا شايفة "الإخوان المسلمين" من القوى اللي داعية ليه على صفحة "كلنا خالد سعيد".. أنا لسه مش متأكدة إذا هنزل ولا لأ.

- هتنزلي مع مين؟

- مش مع حد.. لو هروح هروح قدام جامعة القاهرة هيتجمعوا هناك..

- لأ اتغيرت.. هم دلوقتي عند النقابة.. عند دار الحكمة.. وبعدين هيكملوا على التحرير.

- طيب وانتي لو نزلتي هتروحي فين؟

سكتت "رغدة" للحظات قبل أن تجيب:

- أنا في المظاهرة دلوقتي عند دار القضاء العالي.. تحبي تيجي لي هنا دلوقتي؟

تغيظني "رغدة" كثيرًا بتكتمها أمورها، تمامًا مثل "عليّ"، كنت متأكدة من نزولها، فلماذا تبقي أمورها دائما طيّ الكتمان..

- مش مهم.. كل واحد حر في طريقته.

هكذا قلت لنفسي وأنا أهبط سلالم بيتنا القديمة وأسير إلى شارع المنيل الرئيسي كي أستقل سيارة أجرة.

كنت كلما فكرت أني سأذهب لأقف في ميدان التحرير وحولنا عساكر الأمن المركزي وتنتظرنا عربات الترحيلات.. يدق قلبي كأنما يناديني بتغيير ماانتويته.. أسأل نفسي.. ماذا أريد؟ وبماذا سأنادي هناك؟ وهل سيعلو صوتي وراء الصارخين؟ هل سأقدر؟

لا أظن.. سوف أذهب لأرى.. لأعرف.. فقط .. لن أفتح فمي.. لن أنطق بكلمة.. غاية ما أتمناه الآن أن يكف رجال الشرطة عن ضرب الناس.. وهل تقدر مظاهرة على عمل ذلك؟ هل تقدر مظاهرة أن تغير جهازًا كاملًا؟

أخذت سيارة أجرة.. طلبت من سائقها أن يوصلني إلى أقرب مكان لدار الحكمة.. رد بلا اكتراث: مكان ما تحبي تنزلي قوليلي.. ولم يكن يعرف ماذا أعني حتى اقتربنا من شارع القصر العيني وتوقف سير السيارات وظهرت عربات الأمن المركزي وعساكره ورتبه.. وقال الرجل باستغراب: هو فيه ايه.. خير اللهم اجعله خير.. يظهر في قلق هنا.. ممكن نلف ونر..

قاطعته بسرعة: نزلني هنا لو سمحت.. هنا من فضلك..

تعجب الرجل، ولم يفهم، أوقف السيارة. ونزلت منها أتعثر بخطواتي، وأتحسس بطاقة تحقيق شخصيتي في جيبي، وفي جيبي الآخر أتحسس هاتفًا محمولا قديمًا أبدلته بهاتفي.. وأظنني لم أكن أسمع صوتًا أعلى من صوت قلبي ساعتها..

ظننتهم سيوقفونني ويأمرونني بالعودة، وربما يقتادونني معهم، لكن الظابط الكبير أشار إليّ أن أنضم إلى المتظاهرين أمام دار الحكمة.. أسرعت خطواتي، وأوسع لي عساكر الأمن المركزي مكانًا كي أعبر.. وما إن صرت مع المحتجين حتى أغلقوا خلفي أيديهم.. فمن يدخل هنا غير مسموح له بالرحيل.

- أهو أنا جيت وخلاص.

هكذا رددت لنفسي أسكن مخاوفها..

تلفت حولي.. أعرف كثيرًا من هذه الوجوه التي أراها الآن.. كانوا يتعاقبون في إلقاء كلماتهم.. وترتفع الهتافات فيما بين الكلمات .. عيش .. حرية .. عدالة اجتماعية.. أعرف هذا الكاتب الذي يتحدث الآن.. ظننته أقصر مما يبدو عليه.. وكلمة لأستاذ لنا في كلية الطب .. مش ممكن.. دكاترة طب دول ملهمش في الثورية خالص.. يبدوا أنه يجب أن أنام وأنا أستمع إلى أيّهم.. هكذا همست لنفسي.. وبين مقطع من كلماته وآخر يأخذ مكبر الصوت رجل أعرفه جيدًا مسؤول في نقابة الأطباء التي كنا نقف على سلالم بنايتها يذكي مشاعر الحاضرين بالهتافات مطالبًا برحيل "مبارك"..

ولا أعرف ماذا دهاني وقتما سمعت هذا الهتاف المنادي برحيل

الرئيس.. قلت في نفسي.. لأ احنا متفقناش على كده.. وتلفت حولي لأجد الجميع يرددون الهتاف.. لم أكن أدرك حتى وقتها أن "مبارك" من الممكن أن يرحل.. أو حتى أن ننادي برحيله.

ووجدت الحاضرين يتحركون .. يلّا على ميدان التحرير.. وتحركنا ..

ووجدت حلقات الأمن المركزي تتزايد حولنا وتحكم حصارها فتفرقنا.. وتعالى الصراخ.. ووجدتهم يركضون.. فانفلت من بين المحاصرين وركضت مع من ركضوا..

وصلنا إلى ميدان التحرير ولم يختلف المشهد كثيرا عما كان طوال شارع القصر العيني.. عربات الأمن المركزي الكثيرة والعساكر الكثيرين.. والرتب الكبيرة والكثيرة.. ونحن أيضًا كنا كثير..

وصلت مسيرة من ميدان عبد المنعم رياض.. وامتلأ الميدان على آخره.. وكلما علا الهتاف في جنبات الميدان.. كلما أحسست حلقة من حلقات الصمت داخلي تنكسر..

كان صوتي خفيضًا في البداية، ثم صار يعلو ويعلو.. حتى صرت لا أسمع إلا صوتي ومن خلفه أصوات الصارخين بالعيش وبالحرية وبالعدالة.

وبدأ الظلام يلف الميدان وبدأ المتظاهرون يغادرون.. ولم أكن في قلبي أتمنى أن يغادروا أو أن ينتهي هذا المشهد الذي احتل كياني.. وكنت كلما هممت بالرحيل استوقفتني الهتافات وكأنها تناديني أنا.. فأعدل عن الذهاب وأبقى.. وإلى من سأعود؟

ولم تبلغ الساعة الحادية عشرة حتى انقلب ميدان التحرير الذي كان يغني حرية طوال اليوم إلى ساحة قتال..

ضيقت حلقات الأمن المركزي حصارها حولنا.. وكأن ما كان مسموحًا لنا من هواء الأحلام قد نفذ، وصار علينا الرحيل.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أشم في الجو رائحة لم أشمها من قبل.. وعرفت من صراخ من حولي أنها القنابل المسيلة للدموع، وبدأ العساكر من خلفها في الضرب بعصيهم الثقيلة.. وملأ الجو دخان كثيف خانق، وتصادم الحاضرون وهم يحاولون الهروب من الدخان.

وشعرت بخطواتي ثقيلة وأنا أجري مغمضة العينين ولا أعرف في أي اتجاه تحملني قدماي، وأمد يدي أمامي أتحسس طوق نجاة.. واصطدمت بظهر أحدهم.. وأحكمت قبضتي على سترته الجلدية.. ليكن من يكون.. فلم يكن أمامي سوى أن أتبع خطواته.. أو أن أسقط في جب الدخان.

فتحت عينيّ بعد وقت بدا لي طويلاً وان كنت أظنه لم يتعد الدقيقتين لأجدني وقد قبضت بكلتي يديّ على سترته وقد أبطأت خطواتنا وتلفت حولي لأجدنا نسير في أحد الشوارع الخارجة من ميدان التحرير، وكانت الناس تسرع الخطا من حولي..

أرخيت قبضتي من على السترة وإن لم أتركها، اعتراني خوف رهيب وأصوات الميدان تصل إلى مسامعي..

- استنى بس حضرتك.. من فضلك.. أنا آسفة والله.. بس هو احنا رايحين فين.

- مش مهم.. المهم نبعد عن هنا. بس ياريت تسيبي السويتر.. خلاص.. إحنا ف أمان هنا شوية..

- أنا آسفة معلهش.. حاضر..

- هاتي ايديك..

ومددت يدي في يده.. وأحكم هو قبضته عليها، وصار يجري بي في الشوارع التي لم أعد أدرك لا اتجاهها ولا مكانها، وأحسست قدماي لا تقويان على متابعة السير..

- أنا مش قادرة أكمل.. مش قادرة..

- مش هينفع نقف هنا.. اجمدي شوية.. خلاص قربنا..

ونظر ناحيتي فوجد دموعي تتساقط وتتسارع أنفاسي ولا أقدر على إكمالها، فأبطأ من سرعته، وقال:

- طيب نهدي شوية.. بس اهدي.. مالك مفيش حاجة حصلت.. عادي..

- هو ايه اللي هيحصل بعد كده؟

- ولا حاجة.. هتروحي وخلاص.. فيه ايه مالك مرعوبة كده؟ انت أول مرة تنزلي مظاهرة؟

- أيوة.. دي أول مرة..

وابتسم وهو يطيل النظر إلى وجهي، ولم أكن قد رأيته بعد.. لم يتعد الأربعين، أسمر، حاد الملامح، ووجدته يطيل النظر إليّ وتتسع ابتسامته حتى خلته سيضحك..

- ممكن أعرف انت بتعيطي ليه دلوقتي؟

- مش عارفة.. أصلي خايفة أوي.

- خلاص.. قلتلك متخافيش.. احنا هنطلع على الكورنيش وممكن تاخدي تاكسي لبيتكم.

سرنا بعدها حتى وصلنا إلى الكورنيش، وعرفت أن اسمه "أشرف"

وأنه يعمل في مجال السينما، وعاودت النظر إله مجددًا، وقلت بصوت مندهش:

- أنا بيتهيألي أعرفك.. إنت معروف.. مش إنت اللي عملت فيلم عن حرب العراق والمصريين اللي بيحاربوا بعض هناك.. وانت اللي عملت فيلم المخابرات ده بتاع الراجل ده اللي كان جاسوس في إسرائيل..

ضحك بغرور طفولي وهو يقول:

- أيوة أنا.. واضح انها أفلام ناجحة جدًا بدليل إنك مش فاكرة اسم أي واحد فيهم..

- أنا أصلي نادر مابتفرج على أفلام .. بالعكس دي كانت أفلام قوية جدًا.

وصار هو يسألني وأجيبه، ثم أعيد نفس السؤال أوجهه إليه فيجيب، وعرفت أنه متزوج ولديه طفل واحد، ويسكن في "الدقي"، ولم أسأله عن انتمائه السياسي.. لأنه لم يسألني، وأوقف لي "أشرف" سيارة أجرة، وسألني:

- تحبي أوصلك؟

- لأ شكرًا.. أنا كويسة، متشكرة أوي.. ربنا يخليك..

- طيب خدي بالك من نفسك..

لم أخبر أمي وأبي عن نزولي المظاهرة اليوم، جلست إلى كمتوري وأنا في حالة ممتدة من الرضى والسعادة والسلام رغم أنه لم يتغير شيء ولم يتحقق شيء سوى أنني خطوت خطوة أخرى كنت أظنها من المستحيلات.

لم أفعل شيئًا سوى أني انتظرت "خالد" على الهواء، وفي موعدنا المحدد سمعت كلماته القلقة:

- إنت نزلت انهارده؟ رجعتي؟ إنت كويسة؟

- الحمد لله.. كله تمام.. نزلت ورجعت، وتمت المهمة بنجاح.

- الحمد لله.. بس مهمة إيه؟

- إني أنزل، أنا عمري ما كنت أتصور إني أمشي في مظاهرة، وإني أرجع سليمة، دول في حد ذاتهم البندين اللي كانوا محطوطين لانهارده.

- أنا مش عايز أحبطك يا"راوية" بس إيه الفايدة.. مفيش حاجة هتتغير.

- منقدرش نعرف، تغيير الحال ربنا اللي يقدر عليه، لكن إحنا اللي يخصنا نفسنا، وأنا الحمد لله غيرت الخوف اللي كان في نفسي.

- بيقولوا مسكوا ميت واحد من ميدان التحرير.

- أيوة بس بيقولوا سابوهم.

- ياريت يكونوا سابوهم.. "راوية".. متنزليش تاني.. مش كل مرة تسلم الجرة.

- متخافش.. أنا كنت ورا خالص.. بس ليه بتقولي منزلش تاني.. دانا بفكر أشوف مجموعة وانضم ليها وانزل معاها..

- أنا بتكلم بجد.. أنا خايف عليكي.

- لو خايف عليا تعالى انزل معايا..

وسكت "خالد" ولم يرد، فقلت:

- سكت ليه؟ متخافش.. أنا بهزر.. أنا مليش في الكلام ده.. هي

كانت مرة ومظنهاش هتتكرر.

- أحسن برضه.. أنا نازل أجازة الأسبوع الجاي مصر. هنزل يوم واحد فبراير.

وسكت ثانية، وأظنه كان ينتظر منى أن أطلب منه أن نتقابل، لكنني لم أرد، تذكرت "طارق"، قمت إلى هاتفي المحمول والذي جعلته صامتًا، وجدت "طارق" قد حاول محادثتي أكثر من ثلاثين مرة.. ولم أحادثه، ورجعت إلى شاشة كمتوري لأجد "خالد" يطلب منى أن ألقاه.

- موافقة.

قلتها بدون تردد، واتفقنا على يوم الأربعاء الثاني من فبراير، واتفقنا أن نتقابل عند باب قصر "محمد علي" بالمنيل لقربه من منزلي.. لن أحكي له حكاية "طارق" الآن.. حتى نلتقي.

***

تغيرت الألوان في عيني عندما ذهبت إلى المستشفى في اليوم التالي، قابلت "منال" وكانت جالسة في غرفة الأطباء مع "طارق"، وكانت "منال" تتحامل على المتظاهرين.. "دول رموا الشرطة بالحجارة.. دول كسروا المحلات.. ايه الخراب ده".. أما "طارق" فقد كان صامتًا هادئًا واضعًا ساقًا على ساق يهز رأسه بالموافقة، قاطعت "منال":

- الكلام ده مش صح على فكرة، المظاهرة كانت سلمية والأمن المركزي هو اللي ضرب المتظاهرين ورمى القنابل المسيلة للدموع.

- أنا جايبة الأخبار دي من ابن عمتي يا "راوية" انت عارفة انه بيشتغل في الداخلية.

- أنا كنت هناك يا "منال".

- معقول؟ بتتكلمي بجد؟

- أيوة.. رحت امبارح.. وكانت كل حاجة رائعة لحد بالليل أما بدأوا يضربوا، وجريت كتير جدًا، وربنا بعت لي واحد من السما خرجني لحد الكورنيش..

كنت أتحدث بسعادة وفخر، ولاحت مني التفاته لطارق وجدته ينظر إليّ بتعجب..

- في حاجة يا طارق؟

- ايه اللي يوديكي مع شوية العيال دول يا "راوية".. يعني كان زمانا بنزورك بعيش وحلاوة دلوقتي.

وصدمتني كلماته التي شعرت أنها تستهزء بي، ولم أرد على سؤاله.. "طيب عن اذنكم".. وغادرت الغرفة.

لحق بي طارق في الممر معتذرًا:

- أنا آسف يا"راوية" مكانش أصدي، أنا بعمل كده بس علشان "منال" ماتخدش بالها.. أنا برضه قلت مفيش حاجة تحوش حبيبتي من الرد على تليفوناتي غير لو كانت حاجة كبيرة.

وسكت ولم أرد، وأكمل هو:

- كلمتي بابا وماما علشان آجي ونتمم موضوعنا؟

- موضوع إيه؟

- جوازنا يا"راوية".. إنت نسيتي؟

- بس احنا متفقناش على حاجة، وانا موافقتش على حكاية محيط الأسرة دي.

- حبيبتي.. أنا عايز نكون مع بعض.. مش مهم الشكل ولا البرواز،

المهم نكون مع بعض بأه، مش ده اللي طول عمرنا بنحلم بيه؟

ولم أرد وأنا أطيل النظر إليه، وكأنني أراه لأول مرة، وأتعجب.. كيف أنفقت عمري أحبك؟ هل غيرتك السنون؟ أم أنها عيوني التي كانت لا تراك كما تراك الآن.

- نتكلم بعدين علشان "منال" جاية وراك.. أحسن تشوفك معايا تبقى مصيبة.

وانصرفت..

وأغلقت هاتفي..

أردت وقتًا أقضيه مع نفسي دون أن أتحدث مع أحد..

ولم أجلس للحديث مع "خالد" ثانية، خفت أن تزل كلماتي بكلمة عن "طارق" فيهرب مني ثانية ولا ألقاه.

حتى "رغدة" لم أحادثها في شئ، وانتظرَت منى أن أحكي مثلما كنت أفعل دائمًا، لكنني لم أحكِ شيئًا، قلت لنفسي: "واشمعنى انا اللي أحكي وهي مبتْقلش حاجة".

لم أتحدث مع أحدٍ ثانية عن مظاهرة يوم ٢٥ يناير، بل ولم يخطر ببالي أنني سوف أشارك مرة ثانية في أية مظاهرة حتى كان يوم الخميس، السابع والعشرين من يناير وكنا نستعد لمغادرة المستشفى أنا و"منال" عندما باغتتني بسؤالها: إنتِ نازلة بكرة يا "راوية"؟

- نازلة فين؟

- المظاهرات بتاعة بكرة.

- قريت عنها انهارده الصبح.. ولو قدرت هنزل إن شاء الله..

قاطعتني "منال": لأ يا "راوية" من فضلك بلاش حكاية المظاهرات

دي، ربنا سلم المرة اللي فاتت، وبعدين انت ناقصك ايه.. المظاهرات دي مش لينا احنا. ايه طلباتك؟ ايه اللي شايفاه غلط وعايزة تصلحيه؟

أجبت بصوت هادئ واثق: قصدك تقولي ايه اللي شايفاه صح.. قوليلي على حاجة واحدة.. كيان واحد.. مؤسسة واحدة.. جهاز واحد.. مكان واحد صح، وأنا مش هنزل بكرة.. بس واحد..

وانتظرت أن ترد لكنها وكأنها كانت تجول بخاطرها تقلّب حياتنا تبحث عن صواب، وقالت بصوت حاني: طيب .. خدي بالك من نفسك، وبلاش تنزلي لوحدك.. علشان خاطري.

ولم أستطع أن أحقق لمنال ما طلبته مني، وصرت ليلتها أقلب ذاكرتي أبحث فيها عمن أقدر أن أدعوه كي يكون معي في جمعة الغد، وتذكرت "أشرف" وتمنيت لو أنني استطعت أن آخذ رقم هاتفه.

ولم أكن قد قررت وحتى ظهر يوم الجمعة إن كنت سأشارك في مظاهراته أم لا، وانتظرت أن يفرغ المصلون من صلاتهم لأعرف كيف سيكون الحال، وهل ستكون المظاهرات جديةً.

وبينما كانت مخاوفي تشدني أن أبقى في البيت مع أمي وأبي وأشاركهما قهوتهما، كانت مشاعر أخرى لم أختبرها من قبل تناديني أن أرتدي ملابسي وألحق بالحالمين بالحرية في زمرهم.. وكانت الساعة قد قاربت الواحدة ظهرًا عندما كلمتني "منال" على الهاتف الأرضي:

- قبضوا على قيادات الإخوان يا "راوية".. الحكاية شكلها انهارده جد.. متنزليش علشان خاطري.. دول قطعوا خطوط الموبايل.. مفيش دلوقتي غير الأرضي.. علشان خاطري بلاش..

وكأنها كانت تشير عليّ بما يجب أن أفعل.. ارتديت ملابسي،

وحملت معي زجاجة خل صغيرة وقطن وقطع البصل ونظارة للماء كانت "لنور".. وفكرت أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي اليوم أن أصبح مع "نور" في مابعد الحياة، وابتسمت وأنا أشعر برحمة الله تحيطنا حتى ونحن في غاية لحظات الضياع والخوف.

ياريت مكونش نسيت حاجة..

وغادرت المنزل.. وأنا أقرأ ما أحفظ من القرآن في قلبي.

الشوارع كانت خالية إلا من بعض المارة المنتظرين مثلي.. أخذت طريقي إلى جامع "ميدان الباشا" حيث ستخرج كل مظاهرات اليوم من الجوامع.. وكلما اقتربت كلما لاحت لي مجاميع من الناس تتزايد، وكأننا جميعًا على ميعاد.. سرت مع السائرين، وتعالت الهتافات بسقوط "مبارك" ورحيل اللصوص، وتعجبت كيف أنّي في يومين صرت أتقبل هذا الهتاف دونما استغراب.

وسرت وسط الجموع..

ما أحلى أن أكون وسط الناس أحلم بما يحلمون، وأنادي بما ينادون.

وما إن لاح لنا سور مستشفى "القصر العيني" حتى تعالى الهتاف وتصاعد دخان القنابل المسيلة للدموع، وكنت في النصف الخلفي من المظاهرة، وصار الناس يكرون ساعة ويتراجعون ساعة وتتزايد الأعداد، حتى كانت الساعة الخامسة تعالى صراخ المتظاهرين في الأمام أن رحلت الشرطة.

وسرت مع من سار متجهين إلى ميدان التحرير، تقصر المسافات تحت أقدامنا وكأننا نطوي سنينَ من الهم والوهن، ونعبر بجوار عربات الأمن المركزي الكبيرة الممتلئة بالعساكر وهي مغلقة عليهم بأقفالها،

فنعدهم بالخلاص ويدعون لنا بالنصر.

قضيت عمري في منيل الروضة، أجمل بقاع الدنيا في عيني.. شوارعها الضيقة الملتفة، وأشجارها الكثيرة الطيبة، وبيوتها التي لا تتعدى الثلاثة أدوار.

كنا ثلاثة إخوة، أنا و"رغدة" و"كمال"، ودرست أنا و"رغدة" الطب، ودرس هو الصيدلة، ولم يكد ينهي دراسته حتى جهز أوراقه، وقدم على الهجرة، وواته الفرصة، ولم يعترض أبواي كثيرًا على رغبته رغم حزنهما الغامر على بعده..

"دي حياته، وهو حر يعيشها زي ماهو عايز.. وبعدين ماحنا ممكن نبقى نروح نزوره هناك"..

وسافر "كمال" وبقينا أنا وأبي وأمي و"رغدة" في بيتنا في منيل الروضة.

وكنا نصنف الناس في المنيل كأولاد ناس والناس الدرجة تانية والذين يقيمون في العشش المطلة على الكورنيش، وفي الصف الثاني من العمارات المطلة على شارع المنيل، وكانت أمي تحذر "كمال" دائمًا ونحن صغار أن يختلط مع هؤلاء..

"دول كلهم شوارعية يابني.. واحنا مش قدّهم"..

وقد غيّر ما حدث بعد يوم الجمعة الثائرة، "جمعة الغضب"، ما كان مرسومًا بعقلي عن سكان حيّنا، ففي الساعة الخامسة وعند اختفاء الشرطة من الشارع، هبطت شوارعنا جماعات منظمة من البلطجية، وعلا صوت الرصاص والفوضى، وتواترت الأخبار عن فتح السجون وتسليح المساجين وإطلاقهم علينا..

وكنت أنا وأبي وأمي وحدنا في منزلنا القديم، وملأني ووالديّ الرعب مما سوف يحدث لنا في غمرة الفوضى.. غير أن الناس "درجة تانية" كما اعتدنا تسميتهم كانوا هم من حمانا.

ونظّم القاهريون أنفسهم لجانًا شعبية انتشرت في كل أحياء مدينتنا.. نسيجًا قويًا يمنع بلدنا من السقوط.

ولم أكن أعرف ماذا سيحدث لنا بعد "جمعة الغضب" خاصة بعد انتشار أعمال الشغب، غير أن الدعوات بتعضيد المتظاهرين المعتصمين في ميدان التحرير كانت تتواتر وتشتد.

وكانت قناة " الجزيرة " القطرية هي نافذتنا على ما يحدث في بلادنا، صرت أتجنب الإستماع إلى قنوات التليفزيون المصرية الحكومية أو الخاصة.. بل صرت أخشاها.. صرت أتجنب قراءة عناوين الأخبار، وفي المستشفى صرت أتجنب أن أستمع إلى آراء زملائي.. صرت لا أحتمل أن أسمع أكاذيبَ عما يحدث في ميدان التحرير، وأنا أشاهد بعيني ما يحدث هناك كل يوم.

أنهي عملي بالمستشفى، وأتجنب أن أقابل "طارق" وآخذ طريقي إلى ميدان التحرير، وكأني أتزود منه قوتي، وكأني أتصبر بهوائه الحر، صرت أخاف على ميدان التحرير أكثر مما أخاف على نفسي.

حتى كان يوم الثلاثاء الأول من فبراير، وكنت في ميدان التحرير أقف مع "رغدة" وآخرين حول شاب أعرف أنه صديق لزوجها "علي" وأنه ينتمي لنفس جماعتهما يهتف على إيقاع الطبلة، ونردد وراءه.. وتعرفت إلى الواقفين بجواري .. محامي ومدرس وزوجته.. وجميعهم

لا ينتمون لأي فصيل سياسي، وإلى جوارنا كانت مجموعة من شيوخ الأزهر واقفين يحثون الناس على الصبر والجلد، ومر بعض الوقت وكنت أتلفت حولي عندما رأيته..

وصرخت اسمه بصوت عالي.. أعلى من كل الأصوات من حولي.. "أشرف" .. والتفت ناحيتي، وأسرعت ناحيته وقد ملأت ابتسامتي وجهي، وظل هو ناظرًا إليّ دون أن يتحرك..

- إنت مش فاكرني.. أنا اللي كنت متشعبطة ف جاكتتك يوميها؟ إنت فاكر؟

كنت أحدثه بصوت عالٍ وتتخلل كلماتي ضحكات سعيدة، كنت كمن عثر على لؤلؤة في قاع البحر.. ورد هو بهدوء:

- أيوة.. فاكرك طبعًا..

والتفت إلى الواقفين معه كأنما يذكرني أننا واقفون في ميدان.. وهمّ أن يعرفني بهم.. لكنه لم يتذكر اسمي، ولم أمهله أنا فرصة، بل اندفعت أحكي له ماحدث لي يومها، وكأنني طفل وجد أمه بعد أن تاه منها وسط الزحام.

- على فكرة أنا باجي هنا كل يوم.. مبسوطة أوي اني شفتك انهارده.. اديني تليفونك لوسمحت علشان مش عايزة أكون في مظاهرة لوحدي تاني.

- ياه.. دحنا اتشجعنا أوي.. اللي يشوفك يوميها ميشوفكيش دلوقتي..

قالها وهو يضحك.. وضحكت من قلبي وأنا أتذكر حالي يومها.

***

اليوم.. الأربعاء.. يوم لقائي بخالد..

استيقظت مبكرة، واستغرقت وقتًا طويلاً وأنا أستعد للقائه، تجنبت أن أفكر في "طارق"، وانتبهت إلى أني لم أفكر فيه منذ لقائنا الأخير، وكأنني نسيته تمامًا.

أخذت طريقي سيرًا على قدميّ إلى قصر "محمد علي" بأول شارع "المنيل"، فضلت أن أمشي إليه كي أطيل وقتًا أحسست أنه كالحلم..

كيف سيكون شكله..

ماذا لو كان شكله مفزعًا.. أو مرعبًا..

ماذا لو كان صوته مزعجًا..

ماذا لو ندمت على لقياه..

اقتربت من باب قصر "محمد علي"، وأحسست بغبائي الشديد إذ لم آخذ رقم هاتفه كي يسهل الوصول إليه، ولماذا لم أتفق معه على إشارة أو علامة؟ وكيف سأعرفه الآن؟

لكنه كان هناك..

لابد أنه هو..

كان واقفًا واضعًا يديه في جيبه، وقد انحنى ظهره قليلاً، واقتربت منه وبانت لي ملامحه، لحيته وشاربه وعينيه السوداوتين وبدا لي كصورة قديس من العصور القديمة، كان أطول مني، وكان يبتسم لي، وقلت:

- إنت "خالد"؟

ورد مبتسمًا: وانت "راوية".. أخيرًا..

عندما أحاول أن أتذكر هذه اللحظات قد لا أقدر على تذكر

تفاصيلها، لكنني أذكر جيدًا ذلك الإحساس الذي غمرني وقتها وكأنني مركب طالت رحلتها واستراحت بعد توهتها على شطها.

كان الحديث بيننا في البداية حييًّا، ثم احتَيَا شيئًا فشيئًا حتى صرنا بعد مايقرب من نصف الساعة وكأننا معًا منذ سنين.

كنت أسير إلى يمينه، وكان واضعًا يده اليسرى في جيبه، وتذكرت حديثه عن ذراعه الضامرة، لابد أنها هي اليسرى، ورأيت كفه اليمنى بجوار كفي، ولم أقدر أن أمنع نفسي..

مددت كفي لتستقر في كفه..

وانتبه هو وحرك رأسه تجاهي ليجدني ناظرة أمامي مباشرة.. لم أقدر على النظر إليه، وأحكم قبضته على يدي بحنان.. وانتابني إحساس جميل..

أن هكذا خلقنا الله.. أنا وهو.. كفي بكفه.

وانتبه "خالد" إلى أننا نسير على الكورنيش باتجاه "ميدان التحرير"، فتوقف.. وسألني:

- إحنا رايحين على فين؟

- رايحين على الميدان.. "ميدان التحرير"، فيه ايه؟ مالك؟ إنت مش عايز تروح؟

ولم يرد، بل نظر إلي بعينين زائغتين.. فأردفت قائلة:

- لو مش عايز تروح تعالى نرجع وانا أبقى أروح لوحدي.

وسكت بعض الوقت وهو ينقل عينيه بيني وبين اتجاه الميدان واتجاه العودة، ثم قال:

- خلاص.. هاجي معاكي.. مينفعش أسيبك تروحي لوحدك.

وضحكت بسعادة، وحاولت أن أتحدث في أشياء أخرى تبعث في نفسه الطمأنينة، لكنه ظل مترقبًا يرد بكلمة أو كلمتين، حتى وصلنا إلى الميدان.

كان الميدان اليوم غير كل يوم.. فرغم أنه كان واسعًا.. ممتلئًا بوجوه جميلة صافية، إلا أن التفتيش عند الدخول كان أكثر جدية من كل يوم، ولعدة مرات، وقد حركت متاريس المرور إلى مداخله لإحكام منافذه، وانتشرت وجوه شابة جادة قوية البنية عند أطرافه، تركزت عند مدخله من عبد المنعم رياض ومن قصر النيل، كانوا كثير.. ربما يزيدون عن الخمسمائة عند كل مدخل.. وتجمع الذين يهتفون عند صينية الميدان في الوسط، ولم أفهم ماذا يحدث في الميدان اليوم..

كان "خالد" يسير إلى جانبي وقد تحررت خطواته، وأحسستها أكثر ثباتًا وقوة.

سرنا ناحية كوبري قصر النيل، ولمحت من بعيد "عليّ" زوج "رغدة" وهممت أن أطلب من "خالد" أن نسرع ناحيته، لكننا وجدنا أحدهم يطلب منا بأدب أن نبقى عند الصينية وسط الميدان.. وتعجبت لطلبه.. وإن امتثلنا له.

وتوجهنا إلى حيث قابلت "أشرف" اليوم الذي قبله، ولم يكن من الصعب أن أجده، كان واقفًا في نفس المكان الذي وجدته فيه بالأمس مع آخرين، وقدمته لخالد وأنا أقول: "فاكر الملاك اللي ربنا بعتهولي يوم خمسة وعشرين؟ أهو هو ده.. " ، وعرفنا هو باثنين يقفان معه؛ "زناري" ويعمل مهندس كمبيوتر، و"بكر" ويعمل مرشدًا سياحيًا، وأخذت أنظر إلى "زناري" طويلًا ثم سألته:

- إنت نزلت يوم خمسة وعشرين؟

أجابني وهو يبتسم:

- أيوه.. عند دار الحكمة.. أنا تقريبًا شفتك لما كنا بنجري على التحرير..

- أنا كمان شفتك هناك..

قلتها وأنا أبتسم وأفكر في هذه الصلة العجيبة التي بت أشعرها بيني وبين أي من نزل يوم الخامس والعشرين من يناير.. كأننا ولدنا معًا من رحمٍ واحدة.

ووقفنا نتّحدث، ثم سألت "أشرف":

- بس فيه ايه في الميدان انهارده.. وليه مجمعين الناس وسط الميدان ومين الواقفين هناك دول؟

وأشرت إلى ذوي البنية القوية عند مداخل الميدان.

فرد "بكر":

- في أخبار عن قلق انهارده هيحصل، ودول الإخوان.. كويس انكم جيتم انهارده، علشان الداخلية ميستفردوش بيهم.. ثم سكت للحظة وأكمل: بالإخوان يعني..

ولم يعلق "أشرف"..

وبعد مضي بعض الوقت سمعنا أصوات اصطدامات وجلبة عند مدخل الميدان من ناحية عبد المنعم رياض، كانت الساعة قد قاربت الثانية ظهرًا، نظرنا ناحيتها، كانت متاريس المرور تتحرك ومن خلفها كأنما جيش من الخيول والجمال يسابق هتافات الميدان، جرّني "أشرف" من ذراعي، وجرى بي ناحية الصينية في وسط الميدان:

خليكي هنا متتحركيش.. وطّي راسك..

- "خالد".. فين "خالد"..

- هشوفه حاضر، إنتِ خليكي هنا، متتحركيش من هنا.

وتراجعت مع من تراجعوا، ونحن نشاهد حربًا حقيقية، خيولًا وجمالًا تحمل رجالًا بسيوف وبنادق ورصاص، ورجالات الميدان يدافعون عنه بأيديهم، ويجري أصحاب البنية القوية فيجرون الغزاة من على ظهور الجمال ويطرحونهم أرضًا، وينطلق الرصاص، ويسقط الشهداء، والجرحى..

عدة ساعات مرت.. والحرب دائرة..

حرب حقيقية..

وكنت أتباعد مع من يبتعدون حتى غادرت الميدان وقد قاربت الشمس على المغيب، ووجدتني أسلك طريقًا أظنها نفس الطريق التي سرت فيها من قبل مع "أشرف"، كنت أبكي حرقة على فرحة ميدان التحرير، وأصم أذنيّ عما أسمع من تعليقات من الجالسين على القهاوي في الشوارع الجانبية من الميدان ممن يعارضون ثورته.

و"خالد"؟

ماذا حدث له؟ لم يكن يريد أن يذهب، ذهب لأجلي، ألا يكفي ما فعلوه به من قبل.

عند عودتي للبيت، لم أستطع أن أوقف فيضان الحزن الذي غمرني وفاض بكاءًا مريرًا.

حادثت "رغدة" واطمأننت إلى عودتها إلى المنزل، وطمأنتني على "عليّ" وانهرت تمامًا عندما عرفت منها أن ثلاثة من أصدقائه المقربين

قد أرداهم الرصاص شهداء.

- إهدي يا راوية.. قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا، وهم شهداء عند ربهم يرزقون، و"علي" إن شاء الله إصابته بسيطة..

- ماله "علي"؟

- خَد له خبطة على عينه، بس جامدة شوية، ربنا يستر، وشوية جروح تتعافى إن شاء الله بسرعة.

أحسدك يا "رغدة" على رباطة جاشك وقوة إيمانك.

وحادثت "منال" على الهاتف وطلبت منها أن تقدم لي إعتذارًا عن العمل في اليوم الثاني، ولم أقدر أن أكمل كلامي معها، كنت متعبة، وكانت الكلمات تتقطع على شفتي..

- أنا آسفة يا منال.. أنا مش قادرة أتكلم.. مش قادرة حتى أتنفس.

- استريحي يا حبيبتي.. إن شاء الله كل حاجة هتبقى كويسة.

ولم يمض وقت طويل حتى تعالت نغمة هاتفي المحمول تنبيني عن رقم "خالد".. الحمد لله.. الحمد لله.

- "خالد"..

- "راوية" إنت كويسة؟

ولم أقدر على الرد..

أجهشت في البكاء، ولا أعرف كم من الوقت مر وأنا أبكي، وهو صامت يستمع إلى بكائي..

وتعاقبت أمام عيني كل الصور التي تحاصرني.. الجِمال تجتاح الواقفين في الميدان.. الأجساد الملقاة على الأرض.. "نور" وقد حملوها لي مضرجة بدماها، وأنا أحتضنها.. "كمال" وأنا أودعه وهو راحل

عنا.. صفعات "مجدي" وهي تهوي على وجهي.. الحلم الذي كنت أراه عشرات المرات وأنا أنادي على "طارق" بلاصوت وهو لا يسمعني ويبتعد.. "أشرف" ينادي عليّ أن أخفض رأسي.." ميدان التحرير"..

وهدأت بعد وقت ليس بالقصير..

- ألو.. "خالد"..

- أيوة يا "راوية" أنا هنا..

- أنا آسفة.. أنا مش عارفة أعمل إيه..

- متقلقيش.. هتتعدل إن شاء الله.. في أخبار إن الثوار مسكوا البلطجية وحبسوهم.

- إنت بتتكلم جد؟

- آه والله.. وهيسلموهم للجيش.. ممكن تهدي بأه علشان خاطري.

- حاضر.. إنت فين دلوقتي؟

- أنا في المستشفى.

- في المستشفى؟ إيه اللي حصل؟

- متخافيش.. بسيطة والله.. خدت بس خبطة على راسي واتفتحت، وحاطّيني للملاحظة، ودراعي اتكسر، كل دي حاجات بسيطة، من فضلك متقلقيش.

- بسيطة؟ بسيطة ازاي؟ أنا السبب.. أنا السبب..

وانخرطت في البكاء، ولم أعرف لماذا كنت أبكي بهذه الحرارة، وسكت هو حتى هدأت قليلاً وسألته عن مكانه في المستشفى، حتى أستطيع أن أزوره في اليوم التالي.

- "راوية" أنا عايز أشكرك على انهارده، انهارده كان أجمل يوم في

عمري، واوعي تعيطي تاني..تصبحي على خير.

- وانت من أهله.

وأخذت الوسادة بين ذراعي باستسلام، وقد تنحت كل الصور عن مخيلتي إلا صورة واحدة.. وجه "خالد".. وصوته في أذني.

***

في الصباح كان الصداع يدق رأسي بمطارق القلق والوهن، تعلقت عيوننا بشاشة "الجزيرة" نتابع أخبار الميدان وثواره، وأحاول وسط الأخبار أن أتذكر ما حدث بالأمس..

تناديني أمي كي أرد على الهاتف الأرضي.. كان "أشرف".. وكان صوته على الهاتف كما كان دائمًا لي من يوم أن عرفته.. طوق نجاة.. الحمد لله إنك بخير.. الحمد لله..

بحثت في ذاكرتي عمن أسأله عن أخبار الميدان.. تذكرت "بكر" الذي قابلته بالأمس.. وتذكرت أني أخذت رقم هاتفه.. وحادثته:

- أنا بتصل علشان أطمن عليك.

- أنا كويس.. الحمد لله.. جرح صغير في جبهتي.. "زناري" اللي كان واقف معايا امبارح في المستشفي، جبته من ميدان رمسيس انهارده الصبح، الإسعاف شالته من الميدان ورموه هناك..

- إزاي ده؟

- الإسعاف إمبارح كان همها إنها تشيل الناس من الميدان وتحطهم في أي مكان براه.

- إيه أخبار الميدان..

سألته بجزع، خفت أن يخبرني أن الحكاية قد انتهت وأن طاقة النور قد أغلقت.

- زي ماهو.. استريحي انهارده، وبكرة أما تيجي هتشوفي التحصينات اللي اتعملت في المداخل بتاعته، لازم تيجوا بكرة، وقولي للناس كلها تيجي.. عايزينها مليونية بكرة إن شاءالله.. تعالوا بدري علشان تحضروا خطبة الجمعة..

- إن شاء الله.. أشوفك على خير.

وما إن أنهيت المكالمة حتى تعالى رنين الهاتف من جديد، كان "طارق"، وأحسست أن بيني وبينه ألف عام، ولم أعرف كيف تناءت بنا المسافات إلى هذا الحد.. كان يريد لقائي..

- بس أنا رايحة أزور واحد مصاب في المستشفى.. تحب تيجي معايا؟

- وماله.. نتقابل إمتى؟

ماهذا الذي أنوي أن أفعله؟

هل سأصحب "طارق" معي لزيارة "خالد"؟

هل أصابني مس من الجنون؟

قابلت "طارق" عند الباب الخارجي للمستشفى، وتوجهنا معًا لزيارة "خالد" في غرفته بالدور الخامس، وسألني "طارق" إن كان من سنزوره ممن أصيبوا في ميدان التحرير يوم أمس، وأجبته أنني كنت بصحبته وقتما أصيب.

ولم يكن "خالد" بمفرده، كانت الغرفة ممتلئة بوجوه تشبهه، وميزت من بينها وجه "كريم" ابن أخيه، والذي حكي لي عنه "خالد" كثيرًا، وعرفني هو بهم، وجاء دوري كي أعرفه بمن يزوره معي، وقدمته إليه:

- دكتور "طارق"، كنت كلمتك عنه قبل كده، صمم ييجي معايا

علشان يزورك.

وحاولت بعدها أن أقرأ شيئًا من ملامح "خالد" فلم أقدر.. جمد وجهه ولم ينظر ناحيتي طوال وجودنا في الغرفة..

بعد انصرافنا، سألني "طارق":

- تحبي أروح معاكي "ميدان التحرير" بكرة.. لو رايحة؟

- مش لازم الميدان، ممكن في أي مكان تاني لو تحب علشان عايزة نتكلم في موضوعنا.. إنت طلبت تتجوزني.. وانا مش..

وقاطعني بسرعة وكأنه يعرف ماذا كنت أنوي قوله:

- مش هينفع واحنا ماشيين كده.. وبعدين أنا نفسي أكون معاكي بكرة هناك لو رايحة.

وتعجبت لاصراره.. واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي عند جامع "عمر مكرم" في الميدان.

حادثت "خالد" على هاتفه، كان صوته فاترًا، حكيت له باقتضاب عن حكاية "طارق" وعودته، ووعوده التي لم تزل تتناقص.. وكيف أنني أردت أن أحكي له عما حدث حتى قبل أن نلتقي بالأمس..

وسألني:

- وليه جبتيه معاكي انهارده؟

- علشان تشوفه.. علشان تعرف كل حاجة عني..

- وانا ليه لازم أعرف كل حاجة عنك؟ وبعدين إنتِ حرة تتجوزي اللي انتِ عايزاه.. أنا مالي؟

- يعني إنت مش فارق معاك أتجوزه أو متجوزوش؟

- دي حاجة تخصك.

وصدمتني كلماته..

وحاولت أن ألتمس له العذر في قسوته، فأنا من وضعه في هذا الموقف، وأنا من دفعه لهذا الجفاء، لكنني لم أقدر أن أعذره..

كنت أتمنى لو مد يده وأخذ بيدي ودفع بطارق بعيدًا..

كنت أتمنى لو شعر بانتمائه لي كما أشعر أنا بانتمائي له..

لكنه لم يفعل..

اكتفى بأن حمل عصاه.. وهمّ الرحيل.

***

قد تتأرجح بنا المعاني فلا نعود نلمح الفرق بينها.

خالد

إستيقظتُ صباحاً علي صوت إزاحة الستائر، إنتشر النور في أرجاء الغرفة، مدتْ الممرضةُ يدها تناولني قرص الدواء وهي تغلق المحاليل التي تسري في وريدي، وتبشرني أنني إجتزت فترة الملاحظة بسلام، وإنني بخير وسوف أعود للمنزل.

إتصلتُ بأمي لأخبرها بخروجي، وطلبتُ منها أن ترسل لي مع "مصطفى " ملابس نظيفة لأعود بها، قلّبتُ محطات التليفزيون، تناولتُ طعام الإفطار، وإنتظرت.

لم يكن ذهني خاليًا تمامًا، كنتُ أفكر فيما حدث في اليومين الماضيين، يؤلمني ذراعي كثيرًا، ويلازمني صداع خفيف يزعجني مع شعورٍ بعدم الإتزان، يزداد حينما أفكر فيما فعلته "راوية"!

زارتني بصحبة حبيبها، تقول لي لا تقترب..

ترسم حدودًا لعلاقتنا يجب ألا أتخطاها..

أزاحتني عن عالمها السحري بعدما شعرتْ بإرتباك مشاعري عندما رأيتها، فأرادت تدارك الموقف قبل البدء به..

بَنَت سدًا يحجب الأوهام، ويقمع الأحلام..

ربما أرادت أن تضع حدًا لوهم لمحَته في عيوني وأنا أنظر لها..

ربما وصلتها رسالتي أني أحتاج حنانها، وأرغب في قربها..

ووجدْتني أسأل نفسي سؤالًا حائرًا، إذا كانت تسكن حلمها القديم، فما سر تلك النظرة الحالمة في عينيها؟ وما سر هذا الأمان في قربها؟ وما سر إحساسي بها؟ أتخدعني أحاسيسي لهذا الحد، أم تخدعني عزلتي عن عالم النساء؟

في حقيقة الأمر هي أجمل بكثيرٍ مما تخيلتْ؛ ملامحها رقيقة

ومتعبة، بعدما تحدثت معي وإقتربت مني كنت أود إحتضانها، ربما تسرعت، فلم أكن لها سوي عابر سبيل شاركها الإسم والسمت، وقاسمها مشاعر الظلم والقهر واليأس، ذاق مثلها هجر الأحبة وعناء الإغتراب بعيدًا عنهم..

قد تتأرجح بنا المعاني فلا نعود نلمح الفرق بينها.

علي أية حال ما صنعته لا يحتمل التأويل، واضحٌ .. لا يشوبه ظن ولا إفتراض..

عاد الحبيب في وقت مناسب لها، أصبحت حرة من قيد زوجها، خالية من أي شئ يربطها به، حتي وإن بدت متحيرة بشأنه، لابد أنها ستختاره الآن بعدما عاد.

- حمدللّه ع السلامة يا بطل ...
- اللّه يسلمك يا "مصطفى".. إزيك يا "كريم" يا حبيبي؟

كريم : الحمد للّه يا عمو.

مصطفى : أنا عملت كل إجراءات الخروج، غيّر هدومك قوام، خلينا نروّح البيت بقي، سايب "غادة" بتعملك محشي ورق العنب إللي بتحبه.

تناولت حقيبة ملابسي، نفس الحقيبة التي عدت بها من شرم الشيخ، كل شيئ فيها كما هو، كما وضعته بداخلها، بدلتُ ملابسي، أحسستُ شيئًا في جيبي، مددتُ يدي في دهشة، وجدتُ ورقةً مطوية، فتحتها :

الإسم : ضابط التحقيق في السجن .

دارت الدنيا بي من جديد، جلست قليلاً لأستعيد توازني، عيناي

تتأكدان من العنوان، وعقلي يعمل بسرعة، تقفز كل الأفكار فوق بعضها وتزدحم ثم تصطف في صف واحد، أولاً.. أتصل من هاتف عمومي لأتأكد من وجوده بالمنزل، ثانياً أذهب إليه ومعي مطواة، لا .. لا يمكن أن أفكر هكذا، إذن آخذ عصا غليظة أكسرها فوق رأسه؛ لا.. لا أريد أن آخذ شيئاً قد يجدوه معي يدينني، إذن أذهب بمفردي ثم أنتظره ثم أهوي بيدي علي وجهه، وأراه، أراه وهو يصرخ من هول الضربة والمفاجأة.

مصطفى: جاهز يا خالد؟

طويتُ الورقة وأعدتها لجيبي بسرعة وأجبته :

- أيوة.. أيوة.. خلاص جاهز ..

كريم : أنا يا عمو إللي هاشيل الشنطة .

أجبته: طيب يا حبيب عمو.. ربنا يخليك ..

جلس كريم بجواري في السيارة، لف ذراعيه الصغيرتين حولي واحتضنني بشوق، قبلني في حنان، وجهه قطعة من وجه أبيه، وحنانه هو حنان أبيه، ضغطتُ بيدي علي جيبي، أقسمتُ يا كريم أن أنتقم لأبيك .

***

ما أشد هوان الكلمات التي لا تزيد عن كونها مجرد كلمات..

راويــة

كان يوم الجمعة الرابع من فبراير يومًا مبهرًا بأعداد متظاهريه والتي توافدت عليه منذ الصباح الباكر، وكنت و"رغدة" و"مريم" معهم، عبرنا خطوط التفتيش والتي زادت على العشرة خطوط، وتزايدت الأعداد مع صلاة الجمعة حتى بات الخروج من الميدان شبه مستحيل مع صلاة العصر، وقد تركت الجموع الصامتة أعشاشها وخرجت تناصر الثائرين وتلحق بفرصة النجاة التي لاحت لها من مستنقع الضياع الذي نعيش فيه، ولم أقابل "أشرف" يومها، بل كان من المستحيل العثور عليه وسط الجموع.

وكان اطمئناني يزداد وأنا أرى عائلات كاملة، آباء وأمهات يحملون أبناءهم، شباب وعجائز، محجبات ومنقبات وسافرات، وعربات الجيش وقد كتب عليها يسقط مبارك.. واليافطات في كل مكان تعلن عن هُوية واضعيها..

وصرنا نتجول في الميدان.. نغني مع من يغني، ونستمع لخطبة من يخطب، ونصفق لمن يلقي شعرًا، ويرتفع النشيد الحماسي في الميدان.. اسلمي يا مصر انني الفدا.. ويتزايد الزحام ببعض الأماكن في الميدان، غير أنه لا أحد في الميدان يلمس الآخر.. وكأن للميدان حرمة يحرص كل زائريه على تقديسها.

وتركت "رغدة" و"مريم" عند اليافطة الكبيرة بوسط الميدان والمكتوب عليها "إرحل" وتوجهت للقاء "طارق" عند جامع "عمر مكرم".

تجولنا بعض الوقت في الميدان ونحن صامتين، وانتبهت وأنا أسمع أحدهم يقول بصوت عالٍ: دكتور "طارق".. مش معقول.. إيه اللي

جابك هنا.. مش ممكن..

وأجد "طارق" يرد بكلمات قليلة.. جاي أتفرج.. علشان تعرف إن مش انت لوحدك اللي ثوري.. ويضحكان..

ويسأله الرجل.. إنت جيت لوحدك ولا مع مين؟

ويرد "طارق": أيوه جيت لوحدي.

وأحسست كلمته وكأنها نقطة النهاية في حكايتنا.. جيت لوحدي!

وتحركت بعيدًا عنهما..

وتركت نفسي أتوه وسط الجموع.

عند عودتي للبيت وجدت عربة "طارق" أمام منزلنا، ووجدته منتظرًا بها، وما إن رآني حتى ترجل، وعاجلني بقوله:

- "راوية" أرجوكي.. خليني أشرحلك.. إديني فرصة.. تعالي.. إركبي.. وهنروح نقعد في أي مكان وأشرحلك كل حاجة.. وهتعذريني..

توجهنا إلى مطعم صغير على نيل "المنيل" كنا نجلس فيه أيام الدراسة في الكلية، وشرع "طارق" يشرح كيف أنه يحب أولاده، وكيف أنه لايقدر على البعد عنهم، وكيف أن زوجته تقدر على حرمانه منهم، وكنت متعبة لدرجة أني لم أكن أقوى على الرد على أي من كلامه، فتركته يفرغ جعبته.

وظل هو يصف موقفه الصعب، وكيف أني يجب أن أقف إلى جانبه، وحتى لو كان وجودي إلى جواره سرًا.. وحتى لو كان زواجًا ثانيًا.. أو عرفيًا..

ولم أفهم..

- قصدك إيه؟ يعني إيه زوجة تانية ويعني إيه عرفي؟ إنت مش قلت

إنك انفصلت عن زوجتك؟

– أيوة والله حصل.. بس باباها جالي وقعد يتحايل عليّ علشان الأولاد، ورجعتها.. ماهي كانت طلقة واحدة..

– من إمتى الكلام ده؟

– مش فاكر من إمتى بالظبط.. "راوية" أنا مبحبش ومحبتش غيرك، وعايز نفضل مع بعض طول العمر، بس هي شريرة، أرجوكي قدري موقفي، هو إحنا عايزين إيه غير إننا نكون سوا..

ولم يمهلني كي أتكلم وأكمل قائلا:

– فاكره زمان اما وعدتيني انك مش هتبعدي عني أبدا.. فاكره؟ فاكره أنا حبيتك أد ايه.. إنتي حبي الأول وهفضل أحبك لحد ما اموت.. بس اديني فرصة تانية.

ولا أعرف لماذا تذكرت كلمة" مبارك" التي ألقاها منذ أربعة أيام.. اليوم الذي قبل يوم الغدر..

ما أشد هوان الكلمات التي لا تزيد عن كونها مجرد كلمات..

وأمسك هو بيدي محاولاً استبقائي: أنا مش هبعد يا راوية.. أنا مقدرش أبعد عنك..

قلت وأنا أنظر في عينيه وكأنما أغلق آخر طاقة وصل بيننا.. سيب إيدي.. ولو حاولت تكلمني تاني هقول لمنال على كل حاجة.. لأ.. دانا هوصل لمراتك، وهعرف أوصلها وهقولها على كل حاجة.. إوعى تقرب مني تاني.

وغادرت.

أخذت طريقي إلى بيتنا.. وأنا أشعر أن كل قطعة من حكايتي معك يا "طارق" تذوب مني على الأسفلت، فتحررني من وهم كبير عشته سنينَ طويلة وأنا أراك البطل الذي خُلق لأجلي وخلقت من أجله.

***

فالتشبث بالحلم يحيل الواقع إلى مرارٍ لا يحتمل، واستبدال الحلم بآخر يشفي الجراح

طـارق

ثُبّتتْ عيناي علي مقعدها الخالي وكأنها لازالت جالسةً أمامي، وتساءلتُ بإنهزام..

أتضيع مني للّمرة الثانية؟

أتراها جادةً فيما تقول؟

لا أعتقد.. لم أشعر بجديتها.

في كل مرة كنا نختلف فيها كانت تنتفض واقفة وتقول لي بكل حدة اننا لن نتقابل مرة أخري ولن تعرفني مجدداً، ثم تعود لتلقاني وتدفن رأسها الصغير بين كفيّ ، وتنهمر دموعها شوقا وخوفًا من فراقنا.

ربما صنعت لي عقدةً لأبحث عن حلها، ربما شعرت بتمسكي وإلحاحي وضمنت مشاعري فحاولت الضغط عليّ.

ولكن لمَ؟

ألا تدرك أنني لم أعد وحدي كالسابق و أنني مسئول عن أسرة وأبناء؟

ألا تذكر لي أنني بحثتُ عنها بعد كل هذه السنوات وعدت إليها مشتاقًا إلى حنانها، واهبًا لها ما تبقي من عمري وهي التي بادرت بالزواج من "مجدي" الذي يكبرها بخمسة عشرة عاما ولم تنتظرني؟

والآن تريد أن أنفض عن عاتقي كل آثار السنين وأعود لها وحدي؟

وإن كانت أسرتي هي مشكلتي الآن ألا تحتملها حبيبتي؟

أين الحب إذن وما دليله؟

أعلم أنها تحبني، يراودني شعور أنها ستعود لي وسترضي بوضعي الحالي وستقبله.

في هذا المكان الأثير تكررت لقاءاتنا، لم يختلف المكان و أظنها أيضاً

لم تختلف، قلبها صاف يفيض بالنقاء، لا أظن أنها حملت كرهًا لأحد، فكيف تتحول مشاعرها نحوي وأنا حبيبها؟

لا .. لا أظن أن يحدث هذا، فهي أسيرتي، تدور في فلكي، وأنا نجمها الساحر وبعضٌ من قدرها.

طمأنتني أفكاري كثيرًا، غدت كلمحة من أمل يعيدها لي بعد أن بعدت، فرأيتها تعود لتسامحني علي أكذوبتي البيضاء الصغيرة كما سامحتني على تركي لها سنواتٍ دون قرار، وكما سامحتني علي زواجي بأخري وإنجابي.

أتغفر لي كل هذا ولا تغفر لي انني راجعتُ زوجتي بعد طلاقها؟

أتحتمل فراقي كل الوقت ولا تحتمل وجودي بعض الوقت؟

ألم تسأل نفسها ولو مرة .. لماذا أغامر باستقرار حياتي وهدوئها إن لم أكن أحبها؟

لماذا أحرص علي الإرتباط بها إن لم أكن أريدها؟ لابد أنها ستفكر وتعود.. حتمًا ستعود.

مرت أمام عينيّ الذكريات كأنها شريط سينمائي، تتابعت مشاهده حتي استقرت بي في أحد أيام صيف ٩٤؛ عشتُ في الذكري حتي لفحتني هبات نسيمه الحارة واستعدتُ رائحة المكان المميزة، ورأيتني وأنا اتجه الي بائع المثلجات الشهير الذي يعرفه كل طلاب الكلية حتي إتخذوا من مكانه ملتقيً لهم.

وقفت أتحسس زجاجات المياه الغازية لأتخير أكثرها برودة، ومع أول رشفة تطفئ ظمئي الشديد لمحتها..

وكأنها جاءتني من الجنة، نسمة حريرية تداعب شبابي الظمآن،

دق قلبي لها وعشقتها عيناي، تسمرت قدماي وهي تقترب مني وكأنها تعرفني لتقف أمامي وتحملق في، تعجبت وازدادت دقات قلبي، فإذا بها تشير لي أن ابتعد قليلا فقد كنت واقفاً أمام باب ثلاجة المشروبات، ابتسمت لها وأنا أعتذر:

- معلهش .. ما اخدتش بالي.

- أبدًا.. ما فيش حاجة.

- بصي.. بخبرتي.. أسقع حاجة هاتلاقيها في الرف اللي فوق خالص..

شكرتني في رقة ودلال شديدين، ثم مدت يدها لتلتقط إحداها فلم تستطع، كان الرف عاليًا عليها، نظرت لي طالبةً المساعدة، تقدمت منتشيًا فرحًا بقامتي الطويلة وأنا ألتقط لها الزجاجة دون أن أرفع يدي حتي، بدت معجبة.. ممتنة.. رائعة..

دار بيننا حديث قصير، عرفت أنها في نهاية السنة الثانية وأنها جاءت لبعض محاضرات المراجعة التي تنتشر في ذلك الوقت استعدادًا لإمتحان آخر العام.. كنتُ في عامي السادس استعدُ للإمتحان النهائي.

لم نفترق من ساعتها حتى سافرت، اتفقنا في كل شئ، وعلي كل شئ، كان هدؤها ونظامها يستهويان عقلي المرتب المنظم.

كانت سنة الإمتياز التي أتدرب بها بعد التخرج من أمتع سنوات حياتي، وكانت هي محورًا لها، أبقي معها طوال الوقت ثم أتركها وقت محاضراتها وأحياناً كنتُ أحضرها معها.

كان زملاؤها يعرفونني ويعرفون ما بيننا، لم يكن بيننا ما نخفيه عنهم، كنا سنتزوج بعد إنتهاء فترة الثلاث سنوات نيابتي أحصل فيها

علي ماجستير التخصص وتحصل هي علي بكالوريوس الطب.

بعد إنتهاء سنة الإمتياز، فاتحت أمي بشأنها، بحبي لها ورغبتي الأكيدة في الإرتباط بها، فرحت قليلاً ثم بادرتني بالسؤال عن عائلتها وطبيعة عمل والدها، وحينما قلت لها إنها من عائلة طيبة ووالدها يعمل مدرسًا للغة العربية، وحالتهم المادية معقولة جدًا لأنه أمضي وقتًا طويلاً في إحدي البلدان العربية، قالت إن مثلي حينما يفكر في الزواج لابد ان يفكر بشكل أكثر عقلانية وواقعية، وأن الطريق العملي للنجاح بالنسبة للطبيب طويل جدًا اذا بدأه من أول خطواته، لكن إذا كان مكملًا لخطوات سبقته يكون أسهل وأقرب وأضمن.

واقترحت عليّ الزواج من "نسرين" ابنة الدكتور "الشايب" أستاذ الأطفال وهم من أقاربنا، أكدت أمي لي وقتها أنها تلمح في عينيّ نسرين إعجابًا وولهًا بي، وأن الأمر سيكون أسهل بكثير اذا تزوجتها، سأعمل مع والدها وسأصنع اسمًا وقدرًا بين المشاهير من الأساتذة الكبار.

كانت أمي تمتلك قدرة فائقة علي الحديث المرتب المنظم المحكم، وترسم الصورة الكاملة التي يتخيلها العقل بسهولة ولا يجد مفرًا من الإعجاب بها، ولكنني تخيلت وقتها عيون حبيبتي الصافية ونظرتها الصادقة ووعدي لها، فأزحت الصورة التي رسمتها لي أمي جانبًا، وجاوبتها بكلمة واحدة حاسمة.. أحبها.

لم تلح أمي وقتها في عرض فكرتها، فقد كانت ذكية، تختار الأوقات المناسبة، واللحظات الفاصلة، تفهمني وتجيد الغوص في أعماقي، لكنني في حقيقة الامر تأثرت بكلامها قليلاً، علي الأقل بدأت أستعرض في خيالي صورة "نسرين" ودلالها ومرحها، كانت طوال عمرها تدرس

باللغة الفرنسية والتحقت بكلية الاعلام القسم الفرنسي، شديدة الاهتمام بمظهرها وأنوثتها، وكانت جميلة لا ينقصها شئ لتكون فتاة أحلام أي شابٍ وقتها.

بدأت في إعداد رسالة الماجيستير وممارسة العمل والتنقل بين المستشفيات والنوبتجيات، كانت الصعوبات التي أواجهها تؤكد لي نظرية أمي التي كانت تتمني لي مستقبلا أكثر إشراقًا وأقرب للتحقيق، فمنظومة الطب بمصر شاقة جدًا، تتابعُ بين الإرهاق والإحباط.

وكانت أمي حينما تراني عائداً الي البيت بعد أيام من العمل المتواصل متعباً تنظر لي نظرة كأنها تقول لي "ألم أقل لك".

لم أكف عن حب "راوية" و لقائها، ولكني بدأت أفكر في كلام أمي بجدية وأقلبه في رأسي، حتي أنني كنت أعقد المقارنات بين شكل الحياة إذا تزوجتها وشكلها إذا تزوجت "نسرين"، ولكن قربها الشديد مني وحبها الوافر لي كانا بالنسبة لي حافزًا للاستمرار ونثر أية أفكارٍ أخري بعيدًا عن عقلي.

أنهيت درجة الماجيستير في المدة المقررة، وأنهت " راوية " سنوات الدراسة في الكلية واستعدّت لسنة الامتياز، ولم يعد هناك ما يمنعنا من الإرتباط فحددنا موعداً لمقابلة أسرتها والتي كانت علي علم بعلاقتنا واتفاقنا.

ذهبنا أنا وأمي وإخوتي، أعددتُ لها أجمل باقة من أنواع الزهور التي تحبها، وإلتقينا أسرتها الجميلة المتحابة، واتفقنا علي تحديد موعد لقراءة الفاتحة بحضرة أخوالها وأعمامها في جلسة عائلية محدودة.

ظلت أمي صامتة طوال الوقت ونحن عائدون الي منزلنا بعد

هذا اللقاء، كنت أقرأ أفكارها وقتها، كانت حائرة، لم تجد ما يعيب "راوية"، جمالاً ورقة وأسرة مناسبة جدًا، وفي نفس الوقت كانت تري أن الحب الذي أدعيه يمكن أن يأتي مع زوجة أخري مثل "نسرين" ومعه أشياء أخري أكثر أهمية.

صمتت أمي كي لا تفسد فرحتي وإن كنت أنا من أفسد فرحتها، نظرتُ اليها مستعطفًا:

- ها .. إيه رأيك بقي يا ست الكل؟

- كل شئ قسمة ونصيب يا "طارق".

كان هذا الرد المقتضب، بهذه النبرة المستسلمة، كفيلاً لأشعر بعدم سعادتها وبأنها قبلت لأجل خاطري، بغير اقتناع تام.

بعد يومين أخبرتني " راوية " بموعد قراءة الفاتحة والذي تحدد بعد أسبوع من لقاءنا الأول، لكن هذا الموعد تأجل لأجل غير مسمي لوفاة جدها لوالدها.

بعد أيام قليلة من وفاة جدها، قرأت إعلانًا في الجريدة الرسمية للعمل في السعودية، تقدمت للالتحاق وقُبلتُ علي الفور.

سعدتُ أنا و "راوية " بهذا الخبر جدًا، ولم يمضِ الأربعون يوما كي نحتفل بقراءة الفاتحة كما إتفقنا، غادرت مصر، وتركت قلبي معها، وتركت وعدًا صادقًا، وحلمًا قرب من الحقيقة.

فارقت مصر لأول مرة في حياتي، فارقتُ أمي وأخوتي، وحلمي وحبيبتي، لم أتصور نفسي أبدا أترك بلدي وأعمل في بلد أخري، ولكن حدث، لم تكن مصر التي أراها وأنا لازلت صغيرًا هي ذاتها مصر التي تعاملت معها كبيرًا، سرقت حلمي، وأتعبتني.

كان عندي أملٌ أن أعمل في الجامعة، اجتهدت وواصلت الليل بالنهار لتحقيق حلمي ليأتي من هو دوني ويسرقه لمجرد أن أباه أستاذًا بها، كانت ضربة لي قصمتني وأحزنتني ولا أظنني برأتُ منها، ولا أظنني تأقلمت علي خروجي من الجامعة بسهولة.

عملت في مستشفي تعليمي وكنت أود الاستمرار بها فأعادوا توزيعي بعد إنتهاء فترة النيابة وأرسلوني مستشفي حكومي، ظللتُ أدفن أحلامي حلمًا وراء الآخر دون عزاء، وصحوت علي حقيقة واحدة، عملٌ في مستشفي عام، دخل شهري ضئيل لا يقيم حياة، بالإضافة للعمل في عديد من المستشفيات الخاصة يبتلع طاقتي وصحتي ووقتي لأحقق دخلاً بالكاد يكفي لحياة عادية.

تأجل حلمي بإمتلاك عيادة لائقة، كل شئ فاق إمكانياتي، حتي الشقة التي اشتريتها بكل ما ادخرته أمي لي من ميراث أبي لم تكن تقترب من أحلامي، كنت أحتاج الكثير لتأثيثها، لم يبقي من أحلامي سوي "راوية".

فتاتي الرقيقة، أحبتني وتمنتني بصدق، لم تشترط شيئًا، لم تطلب إلا أقل ما يليق بها، وكنت أتمني أن أحضر لها الدنيا بأسرها.

***

ارتفعت الطائرة محلقةً في السماء، نظرتُ من النافذة ورأيت مباني القاهرة الجميلة تصغر شيئًا فشيئًا حتي اختفت، انتابني إحساس غامضٌ حزين، أغلقتُ عينيّ وشرعتُ أتمتم ببعض الآيات، وأطوي صفحةً من حياتي، وأفتح صفحةً جديدة.

لا شئ يعدل جمالك يا بلدي، قلتها وأنا اشتري بعض احتياجاتي من

المتجر الكبير القريب من سكني بالمستشفي، يتأرجح الناس هنا ما بين اللونين، الأبيض للرجال والأسود للنساء، تتشابه وجوه الرجال خلف اللحي الصغيرة، وتختفي وجوه النساء خلف السواد.

أما المستشفي فكانت رائعة، كبيرة، حديثة، تعمل بنظام محدد، وأجهزة ذات تقنية عالية، جودة في كل شئ، تناسق في الألوان ونظافة فائقة، لك الله يا مصر..

وضعت الأشياء داخل غرفتي، ثم توجهت إلى الهاتف الدولي الموجود في الممر القريب من الغرفة، سمعت صوتها، كانت تبكي بكاءً حارًا أبكاني، وكانت تتساءل إن كنت وجدت ما يعادل إفتراقنا، وأنها لا تحتمل بعادي، وأنها تحلم بي كل مساء.

في الأسبوع الأول تحدثنا يوميًا، وبمرور الوقت أدركنا أننا سنضيع ما نجمع من أموال علي المكالمات، فإتفقنا أن نتحدث يومًا بعد يوم، ثم مرتين أسبوعيًا، ثم استقر الحال علي مرة واحدة يوم الخميس مساءًا نتحدث قرابة الساعة.

كان الوقت يمر بطيئًا علي عكس ما تعودت عليه في مصر، فساعات العمل محددة ومنظمة ولا وقت يضيع في الطريق فقد أقمت في سكن المستشفي، ولا وقت يضيع في الترفيه فالمدينة كلها تطفئ أنوارها في العاشرة و تدخل في سبات طويل حتي آذان الفجر من اليوم التالي.

لم تشغلني كثيرًا العلاقات التي بدأتها مع بعض الأطباء من مختلف الجنسيات ولم أتخلص من الملل، وكنت أشتاق "راوية" وأستعيد ذكرياتي معها وأتمني أن يأتي اليوم الذي نتزوج فيه.

فكرت في استقدامها لنتزوج ونعيش معا ولكنها لم تشجعني علي

الفكرة خاصة أن السكن مرتفع الثمن جدًا، ووجودها معي سيفقدني ميزة السكن المجاني، فتكاليف المعيشة إذا جاءت ستحول بيننا وبين توفيرنا للمال، السبب الرئيسي الذي إتخذنا هذه الخطوة من أجله.

ثم جاء صباح يوم ذهبت الي العيادة فوجدت إعلانا كبيرا معلقًا علي الباب عن إمتحان يعقد بالمستشفي يؤهل من يجتازه إلى منحة دراسية مجانية للحصول علي البورد الأمريكي.

شعرت أن هذه الفرصة صنعت خصيصا من أجلي، فبعد ما عانيته للحصول علي درجة الماجيستير بتُ أخشي خوض تجربة الحصول علي درجة الدكتوراه، وأتصور معاناتي، فتمنيت هذه الفرصة كبديل جيد للدكتوراه وعملتُ جاهداً علي الفوز.

عكفت لأيام علي مراجعة الكتب، عدوتُ مسرعاً لأبشر "راوية" بقبولي، فرحتً من قلبها وهنأتني بحرارة، ثم صمتت، فأدركتُ أن وراء صمتها قلقًا وحيرة، وأوجزت مخاوفها من أن نجاحي وإلتحاقي يعني إرتباطي لمدة أربع سنوات كاملة هي مدة الدراسة وأن أسرتها بدت قلقة من هذا الوضع خاصة بعد مرور عام علي سفري وبعد انتهائها من فترة الامتياز.

قلّبتُ أمري علي كل الوجوه، لم أجد حلاً سوي ما عزمت عليه، شجعتني أمي علي ذلك زاعمةً أن المرأة الجيدة لا تقف عقبة في طريق مستقبل من تحب، وأن مستقبلي هو أهم شئ.

ولأول مرة أقرأ خطاب "راوية" عدة مرات، ولا أستطيع الرد، فقد ذكرت لي أن هناك رجلاً يحوم حولها وطلبها للزواج، لم تعجبني هذه الطريقة، وشعرت أنها تثنيني عن عزمي، وأنها تختبر مشاعري وتضع

رجولتي علي المحك، ماذا تتصور أن أفعل، أترك كل شئ وراء ظهري وأعود كي أنقذها؟

أيحدث مثل هذا في زماننا؟ أم تعيش هي في زمان قديم؟ لماذا لا تقول لأهلها كلمة "لا" صريحة واضحة، ولماذا لا تنتظرني دون ضغط علي أعصابي؟

هاتفتُ أمي طالباً منها أن تحاول معرفة هذا الأمر، فسألتني سؤالاً واحدًا؛ مالذي أريده تحديداً؟

أكمل دراستي وعملي والحياة التي بدأتها؟ أم أعود وأغلق الباب تماماً في وجه أحلامي؟ أم آخذها معي أتزوجها ونعيش سويًا؟ طلبت مني أمي أن أحدد موقفي وما أريده وفقًا لقناعاتي وإحساسي وتصوري دون أي مؤثر، وأنه لا معني من تدخلها في الأمر دون تحديد موقفي.

تصفحت خطابات "راوية" في الفترة الاخيرة، نفس اللحن المعزوف تتردد نغماته بين سطورها، وكأنها تقول إما أن تعود وإما أن تفقدني.

طلبتُها للمرة الاخيرة، قلت لها عبارة واحدة لازلتُ أذكرها إلي الآن:

- "راوية" إعملي اللي انتي عايزاه.

قلتها وكأنني أزيح حملاً ثقيلاً جثم علي صدري، هذا الحمل لم يكن "راوية" نفسها، ولكنه القرار، القرار الذي يجب أن أتخذه وأعيتني الحيل في الوصول إليه.

لم أستطع معرفة القرار السليم، فألقيت لها الأمر، أردت أن تأخذ هي هذا القرار عوضًا عني.

لا أنكر أنني انتظرت أن ترسل لي خطابًا تقول لي بكل حسم عد إليّ،

لكنها لم تفعل، ظلت ترسل نفس الرسائل، وتكرر نفس الكلام ونفس المخاوف والظنون، تشكك في إخلاصي وحبي..

ظللت أقرأ ولا أرد، تتوالي الخطابات ولا أرد، حتي إنقطعت خطاباتها، فأدركتُ أنني سأكمل هنا وحدي.

لا أعلم حتي الآن كيف حدث هذا، كيف انفصلت روحانا، كنتُ وأنا أسمع صوت صراخها في خطاباتها الأخيرة أشعر بالتمسك بموقفي أكثر، ولم أحزن في حياتي قط مثلما حزنتُ حينما سمعتُ خبر زواجها من "مجدي علوي"، صدمتُ من هذا الخبر، وعجبتُ من هذا الاختيار.

كنت أراه كثيرا في "نادي الصيد"، كان عضوًا معروفًا بارزًا؛ وكان يعلم مدي ارتباطي بها، وأن علاقتنا ممتدة منذ فترة طويلة، كيف سمح لنفسه بل كيف سمحت هي له؟ ولماذا هذا الرجل بالذات؟

لقد كان متزوجًا ولديه أبناء كبار، لماذا ألقت بنفسها في هذا الجب؟ أين عقلها؟ لماذا لم تنتظرني حتي أعود؟ أهذا هو ما أغناها عني؟ يالعمق ألمي وحيرتي، اختارته لثرائه الواضح أم كانت تتلهف علي الزواج؟ هل هذا هو الرجل الذي كانت تعنيه في خطاباتها؟

مرت الأيام بي، ومع الوقت ازداد استيعابي للموقف، وإدراكي للنهاية، وأن الوضع الآن أنني وحدي مع مستقبلي المهني وفقط، هذا هو الواقع، فلم يسعني إلا أن دفعت طاقة الجهد والمذاكرة والتركيز لأبعد مدي حتي حصلت علي شهادتي، وطوال ستة أعوام لم تغب "راوية" عن خيالي.

***

شعورٌ رائعٌ غمرني و قدماي تلامس أرض مصر بعد كل هذا الغياب..

شوقٌ عارمٌ وحنينٌ فائضٌ، داعبتني نسمات القاهرة الساحرة وأنا في سيارة الليموزين في طريقي إلى البيت، سافر أخي الوحيد، وتزوجت أختي الوحيدة وانتقلت إلى الإسكندرية، وبقيت أمي بمفردها في منزلنا بين الذكريات، أقسمتُ عليها ألا تأتي لاستقبالي بالمطار خوفاً علي صحتها، فانتظرتني بالمنزل.

فاض دمعي حينما مررت بجوار مدافن الأسرة في شارع صلاح سالم، قرأت الفاتحة لوالدي، عصف بي شوقي إليه، وحينما انعطفت السيارة لتتجه إلى شارع القصر العيني، إعتصر الألم قلبي لفراق "راوية"، واجتهدت أن أبتعد بذاكرتي عن مشهد فراقنا، وصوتها المتألم الحائر في أذني وهو يخبو و يضعف كرجع صوت كاد أن ينقطع.

أفقتُ علي صوت السائق ينبهني أننا وصلنا و يطالبني بمبلغ أضعاف ما كنت أعتقد، فأدركتُ أن مدة الست سنوات غياب كانت مدةً طويلة..

تغيرت ملامح أمي، صارت أكبر.. أضعف.. لكن حنان أحضانها لم يتغير..

هذه المرأة كم عشقتها، أدارت الحياة بنا أمًا وأبًا، كانت صامدة.. قوية.. طموحة.. عدت إليها، إلى بيتي، غرفتي..

مكثت أيامًا لأدرك أن بعض ذكرياتي التي تجمعني و"راوية" لم تعد موجودة، حرصت أمي علي إزالتها قبل وصولي، ربما خشيت أن أضعف أمامها، أو تجدد لي الذكري.

كان أجملها ساعة مكتب تحوي صورتها، بحثت عنها لم أجدها، سألت أمي عنها، فأجابتني: راوية خلاص إتجوزت وممكن تكون أم

كمان، عايز صورتها ليه؟ عايزاك تنتبه لنفسك، وتركز في شغلك، وتفكر في موضوع جوازك من "نسرين".

عدتُ لاستلام العمل في المستشفي الذي كنت أعمل به قبل سفري، أتذكر أنه كان صيف ٢٠٠٤، دومًا يذكرني الصيف بها..

وبينما أقوم بالتوقيع في دفتر الحضور، و للصدفة العجيبة قابلتُ "مروة " صديقة "راوية" الحميمة ودفعة دراستها تقوم هي الأخري بالتوقيع، انسانة وفيّة، طيبة القلب والملامح، أعرفها جيدًا..

تابعتْ علاقتنا منذ بدايتها وكانت بصحبتها يوم أن توجهتُ لزيارتها مع أسرتي في منزلها.

ارتبكتُ عندما رأيتها، كأنني رأيتُ "راوية" تمامًا، فهي كاتمة أسرارها، ورفيقتها المخلصة، ابتسمَتْ ابتسامةً عريضةً عفويةً حينما رأتني، ثم تراجعتْ عنها بعد ثوانٍ كأنها رأت شخصاً لا تود رؤيته، اقتربتُ منها وسألتها في ود وألفة:

- "مروة" .. ازيك .. انتي بتشتغلي هنا؟

- أيوه.. أهلا يا "طارق".. حمدلله ع السلامة.

صاح أحد الزملاء باستغراب:

- إيه ده يا جماعة.. انتوا تعرفوا بعض؟

رددتُ بانطلاق :

- أيوه طبعا.. إحنا نعرف بعض كويس قوي.

سأل الزميل بدهشة :

- وايه اللي لم الشامي ع المغربي؟

- شامي مين ومغربي مين؟

- إنت دفعة اكبر وهي أصغر! إنت تخصص أطفال وهي تخصص رمد!

نظرتُ إليه ألعن هذا الفضول الذي يعطلني عن معرفة أخبار "راوية"، وعندما وجدت "مروة" تستأذن للانصراف، ناديت عليها:

- مروة .. ثانية واحدة..

- نعم؟

- إ ... إ يه أخبار "راوية"؟

- "راوية" كويسة جدًا.. جدًا..

قالتها وقد احمرت وجنتاها في غضب وحنق شديدين، ثم أردفت:

- وانت بتسأل عنها ليه؟

- بطمن عليها.. عايز أعرف أخبارها.

- ومن إمتي تهمك أخبارها؟

- ليه يا "مروة" بتقولي كدة؟

- ليه؟ بتسأل ليه؟ عن إذنك..

- إستني بس.. في إيه؟ فهميني؟

- أفهمك إيه؟ إنك اتخليت عنها وفكرت ف مصلحتك.

- أنا يا مروة؟ أنا؟ أنا اللي سِبتها ورحت اتجوزت؟

- يا سلام.. مين ساب مين؟

- هي اختارت تسيبني.. وانا يعني كنت سافرت علشان مين؟ فيها إيه لو كانت استنت شوية؟

- أولاً يا "طارق" الراجل هو اللي بيسيب وهو اللي بيفضل.. هو اللي ف ايده يكمل وهو اللي ف ايده ينهي.. هو اللي بيشتري وهو اللي

بيبيع.. ثانيًا إنت سافرت علشان نفسك.. علشان طموحك ومستقبلك.. " راوية" علي يدي كانت مستعدة تعيش معاك تحت أي ظرف.. إنت اللي هربت..

- من فضلك يا مروة.. إنتي ما تعرفيش ظروفي كانت إيه.. أنا كانت أعصابي تعبانة.. سِبتلها الإختيار وهي إختارت كده.. وانا رضيت باختيارها.. ازيها؟

- كويسة.. قلت لك كويسة..

- بتشوفيها؟

- أيوة.. طبعا.. دي صاحبة عمري.

- سعيدة؟

- طبعًا سعيدة.. علي الأقل إتجوزت انسان محترم بيحبها ويقدرها.. وعندها بنت صغيرة زي القمر.. وبيت جميل.. ومش ناقصها حاجة.

وانصرفت علي الفور، لكن شيئًا في كلامها وانفعالها أشعرني أن "راوية" ليست بخير.

***

ستة أشهر كاملة قضتها أمي في محاولاتٍ دائمة لإقناعي بالزواج، وكانت في كل مرة تخبرني عن رغبتها في زواجي من "نسرين" بالذات.

كل ما كان في خيالي عنها في ذلك الوقت هي صورتها قبل سفري، وكيف كانت طفلة مدللة.

لكن أمي أخبرتني أنها كبرت وتغيرت، أنهت دراستها الجامعية منذ عامين وأنها مرت بتجربة خطوبة تقليدية لفترة قصيرة استمرت ست اشهر فقط بعد تخرجها.. "يعني الموضوع قديم " علي حد تعبير أمي،

تحت هذا الضغط والإلحاح وافقت أن أراها "صدفة" وتركت لأمي ترتيب هذه الصدفة..

وفي نهاية صيف ٢٠٠٥ تزوجنا، قضينا أسبوعين في باريس، لا أنكر أنني سعدت بالسفر والتجربة بالرغم من ملازمة طيف "راوية" لي، لم يفارقني، كنتُ أغمض عينيّ أحيانًا وأفتحها بحذر وأنا أرجو أن أراها وأن يكون كل ما حدث كابوسًا أو وهمًا ولكني في كل مرة أدرك أنه الواقع الذي أنا عليه.

إدراك الواقع.. دوماً تلقيني الأيام في هذا الشعور وتتركني، حتي إحترفت الرضا، واعتدت التأقلم.

كل ما تمنيت في حياتي وعشت أحلم به فقدته، ومع بداية الفقد أتألم، ثم أفيق لأزيح آلامي جانبًا وأري ما تبقي من واقعي فأرضي به رضا من ليس له مخرج إلا الرضا.

دومًا على أعتاب الفقد أستسلم للقدر، وأنحني للريح.

فالتشبث بالحلم يحيل الواقع إلى مرارٍ لا يحتمل، واستبدال الحلم بآخر يشفي الجراح، إلا في قصة حبي الوحيدة لم أستبدل الحلم ولكني استسلمت للواقع، وظلت بداخلي، طويتها في أعماقي، وأودعتها خيالي.

عملت مع الدكتور "الشايب" في مستشفاه الخاصة، فقد عينني رئيسًا للقسم، افتتحتُ عيادتي، جاءت كما تمنيت من حيث رقي المكان وفخامة الأثاث وحداثة الأجهزة.

بعدما انتهيتُ منها وفي أول يوم أجلس فيها بين باقات الزهور التي أرسلها لي كل اصدقائي ومعارفٍ مهنئين، كنت أتفقد البطاقات بحثًا عن بطاقةٍ منها، كنت أتمني أن لو تعلم بافتتاح العيادة من "مروة"

فتتصل بي لتهنئني فأسمع صوتها، أو ترسل لي زهورها التي تحبها فأشم عبيرها..

تمنيت.. لكنها شطحات الأمل التي تنتابني من وقت لآخر، وانقضي اليوم ولم تتصل بي ولم تصلني زهورها، ولم تكتمل فرحتي بوجودها معي.

مرت أيامي مع نسرين رتيبة، لم تكن من الشخصيات السهلة والمتسامحة، كانت عصبية، تثور وتنتفض لأتفه الأسباب، مدللة إلى حد الملل، لا تقدر أنني أبذل مجهودًا مضنيًا بطبيعة عملي، ثم أنها كانت مسرفة بشكل ملحوظ، ربما لدرجة عدم إحساسها بقيمة المال، مسيطرة..

ونظراً لإنشغالي في العمل فقد تصورتْ أنني حينما أترك لها الامور لتديرها فإن هذا من عدم مقدرتي علي إدارتها، زادها هذا الفهم الخاطئ سيطرة وتملكًا وغرورًا وصلفًا.

لم تترك لي مفر من عقد المقارنات الدائمة بينها وبين حبيبتي "راوية".

مر عام ولم ننجب، أجرينا جميع التحاليل فلم يكن هناك ما يعيق إنجابنا غير أن الله لم يشأ بعد، لم يكن هذا الأمر يشغل بالها، كانت صغيرة تريد أن تنعم بشبابها، ولا تهوي كثيرًا تحمل المسئولية، ولذلك رفضت طلبي أن نتجه للوسائل الصناعية للإنجاب، متعللة أن كل شئ بأوان، لم تكن هذه قناعتها الحقيقية ولكنني شعرتُ بالعمر يجري، والأيام تمر، والسنوات تنقضي، فأنا لم أعد صغيرًا، وأشتاق للإنجاب.

بدأتُ أشعر أنني لن أنجب، لن أنعم بأبناء يسعدونني، وانتابني

خوف شديد حينما اعتقدت أنني ظلمت " راوية " وأن الله يعاقبني، كنت أدعو الله كثيرًا، أرجوه ألا يحرمني الأبوة، يكفيني حرماني منها.

عام ونصف مرت دون أدني أمل؛ الي أن أخبرتني " نسرين " بحملها تهلل وجهي وسعدت وكنت قد نسيت السعادة، بقيت في شغف أنتظر هدية الله لي، وفي صيف ٢٠٠٧ أنجبت ابنتي؛ "نهى"؛ إبتسامة عمري الجميلة، كانت سعادتي بها لا توصف، ازددتُ حبًا لفصل الصيف؛ قضيت به أجمل أوقات حياتي، وصنعت به أحلي ذكرياتي، ولم يمر عامان حتي رزقني الله بتوأمين.

- سعادة البيه.. سعادة البيه..

- هه.. أيوه .. أيوه..

- الحساب.. لا مؤاخذة أصلي لازم أقفل الحساب.. ورديتي خلصت.. وحضرتك خليك قاعد زي ما تحب.

- لا .. أنا قايم خلاص.. حسابك كام؟

كانت الشمس قد غابت، والسماء تلبدت بالغيوم، وسرت في جسدي رعشة من برد الشتاء مصحوبة بحنين وشجن.

***

تصورت أنها ربما ذهبت إلى المستشفي بعدما تركتني، فقررت الذهاب إلى هناك، مررتُ علي عيادتها.

مع كل مرة أمر فيها يتجدد الأمل بداخلي أن ما كان قد يعود، وأن خيط الحب الذي يربط قلبينا كل هذه الأعوام باقٍ لم ينقطع، وأننا نمر تحت سحابة تحجب رؤانا ستنقشع قريباً وتمطرنا بتباشير اللقيا وإطلالة العودة.

ذهبتُ و لم أجدها، كانت العيادة خالية، ومع ذلك لم ينقطع أملي، يتملكني شعور أن رفضها مؤقت، وأن انشغالها في الأحداث الحالية يمدها بقوة زائفة سرعان ما تنتهي مع انتهائها، وإلا لما أخذتني معها لزيارة "خالد"، و لما كانت مزهوة بي وهي تعرفني إليه، منتشيةً بعودتي إليها..

أنا أفهمها حتي أكثر مما تفهم هي نفسها.

وبينما أستعد للمغادرة، إلتقيت زميلًا لنا يعمل في قسم الأشعة؛ يبدو عليه الغضب والاضطراب علمتُ منه أن أخاه كان في الميدان وسقط بضربة رصاص وحالته غير مستقرة.

ذهبت معه لزيارته في غرفة الرعاية المركزة؛ فوجدته فاقدًا للوعي ومصابًا في رقبته إصابة أقعدت أطرافه الأربعة عن الحركة، وحزنت لشبابه؛ فلم يتجاوز الخامسة والعشرون بعد، لم يزل صغيرًا، ماذنبه الذي اقترفه ليدفع هذا الثمن؟

قلت محاولًا أن أواسي أخاه:

- شد حيلك.. بكرة يبقي كويس بإذن الله.

رد باكيًا:

- شفت.. شفت يا "طارق" اللي حصله.. مصيبة.. مصيبة يا طارق.. ياما قولتله وحذرته.. بس مفيش فايدة.

- معلهش عشان البلد والظلم و ال ...

قاطعني:

- بلد مين بس يا "طارق"؟ إنت بتصدق الكلام ده؟ دول شوية عيال قابضين فلوس.. متمولين.. ضحكوا علي ولادنا دول.. غسلولهم مخهم

بشوية الشعارات والهتافات.. وآدي اللي خدناه.

لم أعرف بماذا أجيبه.. فقد ذهبت بنفسي مع "راوية" ورأيت الحماس وصدقت ما شاهدت، ثم رأيت أيضًا ماحدث، ورأيت البرامج التليفزيونية والحوارية، وربما كانوا ممولين فعلاً ويعبثون بالبلد وأمنها، ويجرون معهم الصبية والبسطاء الذين يحلمون بالخلاص.

لكن مالذي يدفع "راوية" للإنخراط في هذه الاحداث هكذا؟ هل تؤمن بما تفعل أم إنجرفت في هذا التيار من قبيل التجربة؟

لم أعهدها ثورية، كانت تلقائية رقيقة تتوخي الصدق وتحترم الحق لكنها ليست جريئة ولا عنيدة.

انتابني قلقٌ عليها، طلبتها لأحذرها من الذهاب ثانية إلى الميدان لكن تليفونها مغلق كالعادة.

لم أكن في حالة نفسية تؤهلني للعودة الي منزلي، لأرسم الإبتسامة وأبدي الإهتمام أمام "نسرين" كما كان الإتفاق عند رجوعها بعد الطلاق.

لا أستطيع اليوم أن أقترب منها وأقبلها وأسألها عن أحوالها، ماذا فعلت؟ ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ و حتي لا أصبح الزوج المقصر ثقيل الدم، يجب أن أسألها عن أخبار الچيم، والدايت قبل أحوال المنزل، وأحوال الأبناء، ثم أركز جيدًا في لون شعرها؛ طريقة تصفيفه ربما كانت جديدة، ثم أقول الجملتين السحريتين "إيه الشياكة والحلاوة دي" و "وحشتيني".

ولو أنها منذ بداية هذه المظاهرات وهذه الأشياء أصبحت لا تعنيها كثيرًا، من شدة قلقها الذي أرّقها وسرق النوم من عينيها، بدت

مضطربة منفلتة الأعصاب، تنفث سجائرها في توتر، تتحدث طوال اليوم إلى أمها وصديقاتها تليفونيًا، وتخشي أن ترسل "نهى" إلى المدرسة، خصوصًا بعد هروب المساجين، وانتشار البلطجية.

تسبّ الثورة وتلعن الثوار ليل نهار، تتحدث عن الهجرة إلى كندا، و تحويل ما نملك من أموال لبنوك في الخارج، كادت أن تجن، وباءت محاولاتي معها لتهدئتها بالفشل، فكنت أتجنبها، وكانت لا تسأل عني، فقد وجدت ما يشغلها ويستنفذ طاقتها.

دلفتُ الي منزلي القديم، إشتقتُ لأمي، وجدتها ساجدة، تردد دعاءً حارًا كي يحمي الله "مصر"، كانت في غاية القلق علي حال البلد، تخشي عليها كأنها أحد أبنائها، إتخذت تعابير وجهها نفس الملامح حينما كانت تقلق علينا ونحن صغار، هذه التعابير التي أعرفها، أصبحتُ الآن أراها تلازم وجهها، وبكت من يومين عندما سمعت "مبارك" يقول: سأموت على أرض مصر.. وكأنها نسيت المعاناة التي تعرضت لها بسبب وفاة والدي من الإهمال في مستشفيات التأمين الصحي، والتعقيدات التي أرهقتها في صرف معاشه ومستحقاته.

- حرمًا يا أمي.

- جمعًا يا حبيبي بإذن الله.. ازاي الولاد حبايبي وحشوني قوي.. عاملين إيه؟ وانت يا حبيبي عامل إيه مع "نسرين"؟

- آه يا أمي ما تفكرنيش.

- ليه بس يا حبيبي؟ مش هديت شوية بعد ما رجعتها؟ ده انا بادعي علي طول إن ربنا يهدي سركم.

- ادعي يا أمي.. بس اللي فيه طبع ما بيبطلوش.. كل ما بتعب قوي

معاها بقول ده ذنب "راوية".

- لا يا حبيبي.. اوعي تقول كدة.. ده نصيب.. وانت نصيبك تتجوزها علشان تجيب الولاد الحلويين دول.

ولم أكن أملك الشجاعة لأحكي لها ما حدث بيني وبين "راوية".. كنت أخشي عليها، وأخشي أن تتدخل ثانية فأخسر حبيبتي إلى الأبد.

تركتها بعدما ودعتها، ركبت سيارتي، بدأت قطرات صغيرة من المطر تتساقط علي الزجاج أمامي، أوقفت السيارة جانبًا، فتحت المذياع، قلبتُ المحطات بحثًا عن أغنيات "أم كلثوم" التي تأتي كل مساء في نفس التوقيت، استحضرتُ "راوية" بجانبي، أداعب خصلات شعرها، أهدي لها كل مقاطع الحب والعشق، الهجر والصبر، أهيم معها وبها، في هدوء الليل، أغمضتُ عينيّ؛ واستسلمتُ لأجمل الذكريات.

***

ميدان التحرير..

طاقة النور التي أطل من خلالها أملٌ ملأ حياتنا بعدما أتعبها الظلم والظلام.

راويـــة

دلفت إلى حجرتي، ووقفت بجوار النافذة المطلة على الشارع المجاور لبيتنا، كنت أرى "طارق" هناك يقف بجوار تلك الشجرة أمام بيتنا ينتظرني ليصحبني إلى الكلية، وربما إنتظر في نفس المكان بعد أن يسير معي إلى البيت، ليطمئن إلى صعودي إلى غرفتي.

وكأنني أتمنى الآن أن يأتي مرة أخرى ويقف هناك في نفس المكان، وأراه، وأشير له، وأنزل لأسير معه، وكأن شيئًا من كل ما حدث لم يحدث..

لماذا كنت حادة معه اليوم؟ ولماذا قطعت ما حلمت عمري كله أن يتصل؟

وأتذكر كلماته عن الزواج السريّ والزواج العرفي.. فأجدني أهز رأسي وأنا أغمض عيني وكأنني أبعد فكرة لا أحتملها على ما كان بيننا، ثم أعود أنظر إلى مكان وقوفه أسفل بيتنا، ويداعب عرضه مخيلتي من جديد، لكنني أتذكر تخليه عني وقتما كنت الوحيدة في حياته، ووقتما كانت حكايتنا في أوجها.

توسلت إليه في خطاباتي ألا يتخلى عني، كنت أبعث إليه في كل خطاب عرضًا جديدًا.. مرة تعالى نعقد قراننا في أجازتك السنوية ولسوف أنتظر العمر كله، ومرة تعالى ويكفيني أن تخطبني ولسوف أنتظر، ومرة تعالى ويكفيني قراءة الفاتحة وسأنتظرك..

كم من الحلول اقترحتها حتى كانت آخر كلماته لي: اعملي اللي انتي عايزاه.. ولم أفهم ماذا يقصد.. هل كان يقصد وقتها أن أحمل حقيبتي وأسافر له؟ هل كان يقصد أن أنتقل للعيش مع أمه باعتباري سأصبح زوجة ابنها؟ هل كان يقصد أن أنتظر؟ بعثت إليه بعدها كل

يوم خطاب.. أسأله عن مقصده، وهو لا يرد..

تملكني الرعب عليه، تصورته مريضًا أو عاجزًا أن يرد علي، ولم أجد مفرًا من أن أذهب لأمه التي أعرف أنها لا تطيقني كي أطمئن عليه وأعرف ماذا أصابه.

استقبلتني بفتور، سألتها عنه، ولم تستطع أن تخفي فرحتها لمّا عرفت أنه لا يرد على خطاباتي وأنه لا يحادثني على الهاتف، بل وزادت قائلة - وكأنها تشمت بي - : اطمني عليه.. ده هو حبيبي بيكلمني يوم آه ويوم لأ، ده حتى دلوقتي معاد مكالمته.

وانتظرت معها..

كنت متأكدة من اختلاقها للكلام.

كنت متأكدة أن جرس الهاتف لن يعلو صوته، لكنه رن رنين الترانك.. وردت هي: "أيوة يا حبيبي عامل ايه.. " ولم أتبين باقي كلامها، حتى سمعتها تقول:" واهي راوية عندي أهي.. تحب تكلمها؟"، مددت يدي بسرعة إليها، كنت متأكدة أنها تحادث لا أحد، كنت متأكدة أن "طارق" غير موجود على الطرف الآخر، وأعطتني هي السماعة وهي تبتسم بشماتة، وجاءني صوته: "لا .. لا يا ماما.. مش مستعد أكلمها دلوقتي.. ملوش لزوم.. قوليلها أي حاجة"، ولم أصدق أذني، وخرجت الكلمات مني بصعوبة:

- ازيك يا "طارق".

- ازيك يا "راوية".. عاملة ايه؟.. وبابا وماما عاملين إيه؟.. وأختك؟.. وانت.. كويسة؟

- انت متردش على جواباتي ليه؟

- مشغول.. مشغول جدًا.. المذاكرة والشغل..

- طيب هتنزل أجازة إمتى؟

- معرفش.. مظنش هقدر أنزل أجازة..

- مش فاهمة.. معلهش بس علشان الموضوع ميفضلش كده متعلق وملوش معنى.. إنت هتعمل إيه؟

وسكت بضعة لحظات أحسستها أيامًا.. ورد بصوت لا أعرفه:

- أنا قلتلك إعملي اللي انتي عايزاه.

- مش فاهمة يعني إيه.. إنت لسه عايزني؟ إنت لسه عايز حكايتنا؟

- الحكاية مش حكاية عايز ولا مش عايز.. أنا متلخبط، والحاجات كلها مش واضحة قدامي، ومش عارف أعمل إيه، ومش قادر أعمل غير إني أشتغل وأذاكر، مش قادر..

وأحسست صوته يختنق، وأشفقت عليه من حيرته ومن ضعفه:

- خلاص يا "طارق" خلاص.. متحملش نفسك فوق طاقتها.. مع السلامة.

وأعطيت السماعة لأمه، واستدرت دون كلمة واحدة ناحية الباب، وأنا أسمع صوتها: "معلهش يا حبيبي، اهدى يا حبيبي، خلاص الحكاية خلصت، هي مشيت خلاص.." .

انتبهت إلى صوت أمي تناديني..

الحمد لله.. الحمد لله أن انتهت تلك الأيام، ما كان أثقلها وأصعبها على النفس، وعند مغادرتي الغرفة لاحت مني إلتفاتة إلى صورة البحيرة المعلقة على الحائط، ولا أعرف لماذا تذكرت "خالد" وقد كنت أحاول أن أتجنب تذكره منذ حديثنا الأخير.

جلست إلى العشاء مع أبي وأمي صامتة، حاولت أمي أن تسألني عن حالي، كنت أرد بكلمات مقتضبة، وسألتني عن "طارق" قلت لها أن الحكاية انتهت لأنه عاد لزوجته، لم أشأ أن أذكر لها كذبه، يكفيه ما هو فيه.

ولم أسترسل في التفكير في حكاية "خالد" كأنما كنت أضع لها نهاية بيدي..

أحسست بأنني تشبعت من حكايات أنصاف الفرسان، وسئمت أنصاف الحكايات، كنت ألوم نفسي بشدة على انسياقها وراء ذلك الحلم الذي يبدو أنه ماعاد لي حق فيه.

كيف تصورت أن "خالد" الذي لم يسبق له الزواج ويصغرني بعامين سوف يراني على خارطته، وأنا مطلقة؟

وكيف نسيت أننا في مجتمع يعامل المطلقات كمخلفات حرب، وتنظر ثقافته للمطلقة كمذنبة ولا غفران لذنبها؟

وكيف فكرت أن "خالد" لن يعنيه كل هذا؟

حتى وإن كان يعاني من أزمة سجنه..

حتى ولو أحبني..

وانتبهت إلى دمعة تسقط في طبق طعامي، سارعت بإخفاء دمعات أخرى تلاحقت وراءها حتى لا تراها أمي، واستأذنتهما لتعبي، وقمت وأنا أحاول أن أفكر في شيء آخر..

ميدان التحرير..

طاقة النور التي أطل من خلالها أملٌ ملأ حياتنا بعدما أتعبها الظلم والظلام.

***

لن يحييني سوي القصاص، لن أخرج عن موتي ويأسي إلا مع صوت إستنجاده وأنين عذابه.

خالـد

تهلل وجه أمي حينما رأتني، انهمرت دموعها واختلطت بدموعي وبللت وجهي، أعدت لي كل أصناف الطعام التي أحبها، رائحة الطعام الشهي تملأ المكان، وليمة رائعة احتفالاً بسلامتي وعودتي.

إجتمع كل أفراد الأسرة علي الغذاء، وحضرت والدة كريم وأخوته من والدته، وافتقدت أبي وعاطف بينهم كما لم أفتقدهم من قبل.

في المساء زارني صديقاى؛ " عمر" و " حاتم " وأصرا أن نخرج قليلًا، كان الوقت متأخرًا والجو باردًا، لكنهما صمما، وانضم إلينا صديقنا القديم "ماجد" والذي تصادف وجوده في نفس المقهي الذي جلسنا به، والذي عرفت أنه انتقل ليعيش في الإسكندرية بعد زواجه.

بدأ شعورٌ بالضيق والإختناق يتملكني حينما رأيته وكأنه سحب الهواء الذي يملأ المقهي فلم أعد أقوي علي التنفس، وازداد ضيقي حينما أفسح له " عمر " مكانًا للجلوس بيننا، بدأ " ماجد" الحديث موجهًا كلامه لي:

- إيه يا " خالد".. ألف سلامة.. مال دراعك؟

قالها وهو يشير بتعاطف مع ذراعي المغطي بالجبس والمعلق حول رقبتي، رد عليه "عمر" بحماس:

- كان ف المظاهرات يا سيدي، وضربوهم، وفتحوا عليهم النار.

تركتهم يتكلمون، يحللون ويفسرون، وقبعت داخل كياني الحزين المنهزم، أسمع أنين جراحي التي لا تندمل، كلما ظننتُ أنني نسيتها وتغلبتُ عليها، يأتي طيفٌ من الماضي فينكأ تلك الجراح.. يدميها فتنزف من جديد..

أفقتُ من شرودي فوجدتهم لا يزالون يتحدثون، يؤيدون ويشجبون،

وأنا لا أحيد بناظريّ عن "ماجد"، أتأمل هدوءه وثباته، وقسماته الراضية، وملامحه الباسمة، ووجدتني أسأله بصوت هامس خفيض، بعدما نظرتُ حولي لأتأكد أن لا أحد يسمعنا:

- انت مش خايف أمن الدولة يمسكك ..؟؟

رد " ماجد" علي الفور ؛ دون تردد :

- يمسكني.. إيه المشكلة؟ أنا خلاص اتعودت علي كدة.. تقدر تقول إني بقيت زبون.

وابتسم ابتسامته الهادئة، ونفذت نظرته الواثقة إلى أعماقي..

كان "عاطف" يحدثني عن أن "ماجد" وبعض أصدقائه من جماعة الاخوان.

تغير الحديث، بدأوا يتحدثون في موضوعات شتي، ولكني شعرتُ بخوف شديد، تخيلتُ البوليس أمامي، رأيتُ طريقًا ضيقًا مظلمًا محددًا في إتجاه اللاعودة، كدت أختنق، استيقظ الفأر الكامن بداخلي، ومرت أمام عينيّ الأحداث تتري..

انتفضتُ واقفاً وقلتُ بنبرة مليئة بالتوتر:

- عايز أرجع البيت دلوقتي حالا..

تساءل "ماجد" في دهشة عن السبب أما "عمر" و "حاتم" فقد فهما ما يدور بداخلي فقاما علي الفور.

لم أنم طوال الليل، أتقلب في فراشي مؤرقًا، محاصرًا بالذكريات من كل جانب، أستلقي علي جانبي الأيمن فيرتسم وجه "عاطف" علي سريره أمامي، أنام علي جانبي الأيسر فألمح كل مأساتي مرسومة علي الجدار، أغمض عينيّ، أسبح في ظلام أعماقي الممتد، أفتحهما أغرق في ظلام الواقع.

حتي سمعتُ صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، رحتُ في سجدةٍ طويلةٍ طامعًا في رحمات السماء.

ومع إشراقة أول خيط للشمس، نزلتُ من البيت، عازمًا علي التوجه إلى بيت الظابط الذي تولي حبسي وتعذيبي أول مرة، لم أكن أدري وقتها ماذا سأفعل، ولكني عقدت العزم علي الإنتقام منه، لن يحييني سوي القصاص، لن أخرج عن موتي ويأسي إلا مع صوت إستنجاده وأنين عذابه.

لم تبقَ في مخيلتي صورة أحد ممن عذبوني مثلما بقيت صورته، كان السوط في يده ثقيلًا رهيبًا، يرفعه بسرعةٍ ويلوح به في الهواء بقوةٍ فأسمع أنين ذرات الهواء قبل أن يستقر علي ظهري، ليثبتَ ثوانٍ يلتقطُ فيها فتات جلدي ولحمي الممزق وتتطاير قطرات الدماء علي وجهي مع الضربة الثانية، كانت قسماته مليئة بالغيظ والغل الشديدين، وصوته الأجش الأجوف يرج المكان ويزلزل الأركان وهو يقول في نبرة غليظة واحدة لا تتغير: " اعترف " وأنا أجهل بماذا أعترف.

تمنيتُ من شدة عذابي ساعتها أن يملي علي مسامعي اعترافًا فأقره، ذلك المخلوق العجيب، لا يمكن أن ينتمي لجنس البشر، لا يمكن أن يكون ابنًا للإنسانية، علي الرغم من أنه يبدو عاديًا في ملابسه المدنية، يرافق عائلته، يبتسم لهم، يداعبهم، كيف يفعل ذلك؟ وأي شعور يصطنع؛ القسوة أم الحنان، الوحشية أم الرفق؟

وصلتُ أمام العمارة التي يسكنها في الطابق السادس، وقفت أمام المصعد، كان مدخل العمارة واسعًا، تملؤه مرايا عديدة من كل الجوانب..

رأيت نفسي من كل الزوايا؛ رفعت رأسي عاليًا، حاولت إقامة ظهري ليستقيم عن آخره، ملأت صدري بالهواء، تمتمت بدعاء يحفظني من كل سوء.

مددت يدي لأفتح باب المصعد، فإذا به يصعد خاليًا مشيرًا إلى أن أحدًا ما استدعاه من الدور السادس..

تسمرت قدماي في مكانهما أمام الباب؛ أتصوره ينزل الآن، يفتح الباب فيجدني أمامه، فأستقبله بصفعةٍ قويةٍ علي وجهه تمحو كرامته، وتعيد وجودي.

توقف المصعد في الدور السادس ثم بدأ يهبط شيئا فشيئا، تلازمت خطوات هبوطه مع خطوات هبوط قلبي الذي كاد يرتطم بالأرض مع بابه وهو يُفتح..

أطل بوجهه أمامي..

اقتحمني..

كبلني..

فلم يتحرك لي ساكن..

ألقي بظله علي وجودي الضئيل فلم يعد لي وجود.

رأيته يملأ المرايا أمامي، وحينما مر تمامًا واختفي، بدت صورتي في المرآة كشبحٍ منهزم.

***

فيضحك وهو يقول: معظمنا مابينتميش لأي جماعة أو حزب.. بس كلنا هنا علشان بنحب مصر.. المستقلين مننا واللي ليهم انتماءات..

راويــة

احتدمت الأحداث في الأيام التي تلت أربعاء الجمل كما أطلقوا عليها، كنت أذهب إلى ميدان التحرير كل يوم بعد انتهاء عملي في عيادتي وفي المستشفى، وكنت أرى التحصينات في أركان الميدان وكأننا في ميدان حرب، وقد ابتكر المرابطون في الميدان قبعات من الأسلاك والمعدن لحماية أنفسهم من الطوب الذي يلقيه عليهم من يحاولون كل يوم إصابتهم من أطراف الميدان.

وامتلأ الميدان بمن يربطون أيديهم المكسورة وأرجلهم المجروحة ورؤوسهم، كأنها علامات على الشرف والبطولة.

وكنت أرى الجمال والخيول التي استولى عليها الثوار يوم الجمل مربوطة في ركن من أركانه حتى يتم تسليمها للجيش.

وكان الميدان غاية في النظافة رغم امتلائه بثواره، ينتشر فيه شباب بأكياسهم السوداء ينظفونه وتحضر عربات تحمل الأكياس في آخر اليوم، وعند "المتحف المصري" مُدت مواسير لعمل حنفيات لمياه الشرب..

- دي الإخوان اللي عملوها..

قالها "بكر" وهو يحاول إرشادي في الميدان، ثم تهلل وجهه وهو ينظر خلفي ويصيح "زناري".. والتفت لأرى "زناري" الذي قابلته يوم الجمل مع "أشرف" و"بكر".. ويتصافحان.. وأكمل "بكر":

- الناس الطيبة بتيجي على السيرة..

لم أكن أعرف أن "زناري" من جماعة الإخوان! سلمت عليه وأنا أقول: حمد لله على سلامتك.. "بكر" قاللي انك رحت المستشفى يومها.

ضحك "زناري" وهو يقول:

– وأكيد قالك إنه جابني من رمسيس لما لقاني مرمي جنب الرصيف هناك.. صح؟

وضحكنا..

وكنا نتجول في الميدان نتنقل بين منصاته الصغيرة وتجمعات خيامه وكأننا نتجول في عقل مصر وقلبها..

مجاميع ملأت الميدان وفي وسط كل منها يعلو صوت أحدهم بهتاف أو بغناء أو بشعر أو بكلام.. مجموعة شيوخ الأزهر.. مجموعة شباب الجامعة.. مجموعة الأطباء ببلاطيهم البيضاء.. مجموعة الفنانين.. واليافطات في كل الميدان تعلن عن هُوية واضعيها.. كل "مصر" كانت هناك.. وكان "بكر" وكأنه يرشدني في عقل "مصر" الذي بدأ يتحرر:

– التلت خيام دول لمجموعة "٦ إبريل".. والخيام الكتيرة دي خيام الإخوان، ودول للعائدين، ودول للإسلاميين.. وأستوقفه:

– العائدين؟ مين دول؟

– دول الجهاديين اللي كانوا بيحاربوا في العراق وأفغانستان.. هم قليلين.. بس موجودين.. فاكره الراجل اللي دراعه مقطوعة اللي قابلناه من شوية.. أهو ده منهم.. والخيمتين دول للوفد.. "رامي لكح" أهو واقف هناك.. إنتي عارفة انهم حبسوه ف مكتبه ٨ ساعات يوم خمسة وعشرين علشان مينزلش المظاهرات؟

– مين اللي حبسه؟ وليه؟

– قيادات الحزب مكانتش موافقة انهم ينزلوا.. بس شباب الوفد كانوا موجودين من يوم خمسة وعشرين.. زي شباب الإخوان كده.. المجموعة اللي هناك دي الناصريين..

- فين خيامهم؟

- أصل مقرهم قريب.. ودول حركة "كفاية" ودول "الجمعية الوطنية للتغيير"..

- أومال فين "البرادعي"؟

- هو مش موجود.. بس هم موجودين.. شايفة المولدات دي.. اللي جايبها الإخوان.. والناحية التانية مولدات جديدة جابها "ممدوح حمزة"..

وأسأله وأنا أبتسم، وكأنني أتمنى أن أسمع إجابته التي أعرفها:

- بس ازاي كل الناس اللي مالية الميدان دي بتكفيها الخيام دي؟

فيضحك وهو يقول:

- معظمنا مابينتميش لأي جماعة أو حزب.. بس كلنا هنا علشان بنحب مصر.. المستقلين مننا واللي ليهم انتماءات.. على فكرة إنتي سألتيني السؤال ده قبل كده.. وانا جاوبت نفس الإجابة..

فأقول وأنا أضحك: مانا ببقى عايزة أسمعها.

وأشار إلى أحدهم جالس على الرصيف..

- عارفة مين ده؟

ونظرت إلى حيث أشار.. ورأيت رجلًا أعرف صورته جيدًا..

- أيوه طبعًا أعرفه.. ده الأستاذ "محمد عبد القدوس" الصحفي.. الحمد لله انه بخير.. أنا شفت صورته منشورة تاني يوم خمسة وعشرين وهم بيسحلوه عند نقابة الصحفيين.

- هو هنا كل يوم.. تعالي نسلم عليه..

وجاء بيان الجيش الثاني محايدًا، يعلن حفاظه على البلاد، وكنا

نتمنى أن ينهي به الوضع ويأخذ المبادرة، ثم تعاودنا المخاوف أن ينقلب الجيش على رئيسه وعلى الشعب ونعود إلى مايشبه ثورة ١٩٥٢، حالة من التوهة والانتظار لما اعتقدنا أنه مستحيل.

حتى كان يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير، أخذت موقعي مبكرًا اليوم بالقرب من منصة الميدان والتي سوف يُخطب فيها للجمعة، وكان الميدان مزدحمًا حتى أننا اضطررنا للصلاة ونحن واقفون، وقد وقف خلفي ثلاثة رجال طوال يبدو من ملامحهم ومن ثيابهم أنهم غير قاهريين، وقبل أن يبدأ الإمام صلاته جاءنا بيان الجيش الثالث والذي شابه البيان الثاني وبدا غاية في الحيادية.

وانتابني الرعب الشديد على الثوار الذين أزمعوا أن يتجهوا ليلحقوا بزملائهم عند القصر الجمهوري، وتعالى الهتاف: "احنا عند العصر هنكون عند القصر"، وتخيلت ماذا سيحدث هناك، وكم من القتلى سيسقطون.

وأظنني لم أبك في حياتي كما بكيت ساعتها، بكيت رعبًا وخوفًا وأملاً وقهرًا ورجاءًا، وانقطع صوت الخطيب في وسط خطبته وعرفت فيما بعد أنه قد غشي عليه، وأتانا صوت آخر يكمل الخطبة، ثم صوت الشيخ "جبريل" الذي أعرفه يؤم الناس في الصلاة.

وعندما قرأ في الآية الأولى وعده تعالى: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئا.." علا صوتي بالبكاء، ولم أسمعه لأن بكاء الرجال من خلفي غطى على صوتي.

ورفعنا جميعًا أيادينا إلى السماء ندعو الله خلف الشيخ لمصر، ولأهلها، لم يكن بيننا وبين الله ساعتها إلا أصواتنا تستجير.

وكانت فرحة الميدان غامرة كفرحة مصر كلها في المساء وقتما أذاع اللواء "عمر سليمان" بيان التنحي لمبارك عن سدة الحكم، وفُتحت أبواب الميدان لكل المحتفلين بنصره، واختفت خطوط التفتيش على مداخله، وكأنما شد حماته رحالهم ليسلموه لكل الناس علمًا وعلامة في حياتنا.

***

ألهذا الحد عاش فينا فرعونًا وعشنا معه مستضعفين في الأرض..

خـالـد

كانت رحلة العودة إلي شرم الشيخ هذه المرة طويلة جدًا، رغم أن المسافة ثابتة، وكانت الأجازة التي قضيتها في القاهرة أيضًا طويلة جدًا، رغم انها كانت أسبوعًا واحدًا فقط، لكنها امتلأت بالأحداث والصراعات والأشخاص والأمنيات.

عشتُ بها مشاعر متضاربة أرهقتني، اقتربتُ من الحلم فارتطمتُ بالواقع، تحسستُ الأمل فأمسكتُ بالسراب، دققتُ أجراس النصر فعانقتني الهزيمة.

"راوية".. الحلم الصغير النابض في قلبي أزاحتني بعيدًا عن وجودها.

وإطلالة الأمل التي أنارت وجداني من عيون شباب الميدان أحالتها نظرة سجاني إلى خوف ويأس.

وحتي هتاف المقهورين من وطأة الاستبداد لم يزل هتافًا يسكن حناجرهم ويستحيل إلى أرواح تُزهَق ودماء تسيل.

رأيتُ كل شئ في عيوني باهتًا كأنني أنظر إليه من خلف الضباب، كل أحاسيسي حزينة مستسلمة كأنها تساق إلي النهاية في مشهد احتضار مهيب، يئن جسدي متألمًا، فكل جراحه استعادتها ذاكرته المتعبة، كنتُ أشعر بخذلانٍ جاثم علي وجودي كله حتي تمنيت فناء ذلك الوجود.

فما قيمة القلب دون الحب، وما قيمة النفس دون الكرامة، وما قيمة الوطن دون الحرية.

كان الفندق خاليا من مريديه، الأنوار الجانبية كلها مطفأة، والإضاءة الأساسية خافتة، لا صوت لدبيب أقدام ولا لهمسات أصوات؛ خيم عليه الهدوء، بات حزينًا يشبه أعماقي الخالية، و كان موظفو

الإستقبال يجلسون علي مقاعد البهو بدلًا من النزلاء، وهذه الجلسة أعرفها جيداً، لا يمكن أن تحدث إلا إذا كان الفندق خاليًا تمامًا.

جررت حقيبتي مع أقدامي وجسدي المتعبين، وألقيت بكل همومي علي سريري، غلبتني دموعي فأجهشتُ بالبكاء كطفلٍ ضل طريقه عن أهله، ورحت في نوم عميق.

نمتُ كثيراً كأنَّني لم أنم منذ عام مضي، وكنت محتاجًا للنوم متعطشًا إليه، قضيتُ أغلب الوقت أتَّابع أحداث الميدان متنقلاً بين القنوات التليفزيونية، بدا واضحًا أن قنوات الدولة الرسمية لاتهتم بنقل الحدث بشكل كامل ومباشر، كانت النيران تشتعل والأعيرة النارية تطلق علي المتظاهرين، بينما تثبت كاميراتها علي مشهد جميل لنهر النيل.

وتسابقت برامجها الحوارية بالحديث عن المتظاهرين وكيف أنهم ممولين من جهات خارجية بهدف تدمير البلاد، والقضاء علي أمنها واستقرارها، وكيف أنهم خونة وعملاء، وكانت الاتصالات بأغلب الفنانين والاعلامين تدين ما يحدث وترفضه وتؤيد فكرة التمويل والمؤامرة.

أما بالنسبة لي فقد كنت علي يقين بنزاهة هؤلاء المتظاهرين، رأيتهم بنفسي وجلست معهم، كانوا مع إختلاف توجهاتهم يلتقون علي رفض الفساد والظلم والقهر، كانوا ينادون بالكرامة والإنسانية والعدالة، وكانوا يمتلكون في أعماقهم إيمانهم بما يدعون له فمنحهم الايمان قوة، وزادهم اليقين عزمًا واصرارًا، وكلما وقع منهم شهيد ورأوا دماءه ازدادوا عناداً وارتفعت مطالبهم لتنال من موقع الرئيس

ذاته ..فعلا هتافهم له بالرحيل.

ولم أصدق عينيّ وأذنيّ وأنا أري " عمر سليمان " يلقي خطاب التنحي، وترتفع أصوات التكبير والتهليل لتملأ ميدان التحرير وكل الميادين، وتختلط دموع الفرح لرحيله مع دموع الألم لرحيل من سقطوا شهداء.

مشهد مهيب، حدث جلل، علت الأصوات في الفندق، الكل يحمل في أعماقه براكين غضب وجدت أخيرا طريقها للخروج، كانت ليلة صاخبة؛ لم تنم مصر كلها، ألهذا الحد عشنا نرسف في الأغلال كالحمقى؟

ألهذا الحد تحملنا وصبرنا؟

ألهذا الحد عاش فينا فرعونًا وعشنا معه مستضعفين في الأرض.

وكأن قلبي تخفف من همه فغدا وليدًا يستكشف في دهشة أولي نبضاته..

وكأن جسدي تخفف من أحماله فغدا كريشة عانقت نسمات الليل النادية واستقرت بين أحضان الصباح..

وكأنني أحببتُ عمري بكل مافيه من محزنات..

وكأنني سامحتُ أيامي فما عادت كما كانت تعاديني.

***

ثمة أجواءٍ مريبة تحاصر المنطقة التي يقع فيها الفندق، عدة طائرات من نوع الهليوكوبتر تحوم في السماء منذ الصباح، وعربات مصفحة تشبه عربات الجيش تمر من أمام الفندق ومن خلفه.. ثمة غموض يكتنف الأرجاء، ويلف المكان بسكون يشبه عالم الأسرار.

وأنا في الممر المؤدي إلى بهو الفندق قابلت بعض زملائي الذين بدا

عليهم التعجب مثلي من هذه المشاهد، وقفتُ معهم كالعادة نلاحظ ونحلل ويدلي كل منّا بدلوه.

اشتياقنا الشديد للأفواج السياحية التي إنقطعت عن المكان جعلنا نتصور أنه ربما كانت هذه استعدادات لفوج مهم، ربما شخصيات عالمية أو أفواج دبلوماسية أو ماشابه ذلك.. إلي أن قال أحدهم تحليلًا كُتمت به أنفاسنا.

- انتوا عارفين يا جماعة علي أخر شارعنا بعد الهضبة العالية اللي علي اليمين في إيه؟

رددنا عليه في صوت واحد تقريبا :

- في إيه؟

- فيه القصر.. قصر "مبارك".. أيوة القصر بتاعه اللي بينزل فيه لما بيجي شرم الشيخ.

فتحنا جميعاً أفواهنا وعيوننا وآذاننا في دهشة عارمة. أفاق أحدنا بعدها ليسأله:

- تقصد تقول إن "مبارك" جاي هنا؟

- ليه لأ.. احسبوها انتوا بعقلكو كده.. تفتكروا يعني ها يروح فين.. ما هو مفيش غير هنا.

ولم تستمر فترة تفكيرنا وتحليلنا وتوقعنا طويلًا، فقد جاءنا النبأ اليقين..

حضر الرئيس المخلوع وأفراد أسرته وطاقم حراسته الخاص، سكن في قصره لائذًا به بعدما لفظته أرض مصر علي رحابتها وإتساع صدرها، بعدما تعبت من الفساد الذي استشري كالطاعون يهدم

أركانها ويعصف بثوابتها..

أنّت من الإستغلال الذي مزق أوصالها طمعًا في خيراتها وكنوزها، اشتاقت لحنان قمحها علي سنابله يغازل الحياة في مجري النهر فيطعم الشفاه ويرفع الجباه..

حزنت علي أبنائها وقد عانوا من الفقر والجهل والمرض.

سبحان الله المعز المذل .... ماحدث في تلك الايام القليلة يشبه ما يحدث في كتب الروايات ويفوقها.. لكنه حدث.

واستطعتُ أن أشعر بوجداني ينتفض فرحًا ونصرًا، وتمنيتُ أن أري " راوية " ولو لمرة واحدة، أبادلها شعوري الجديد..

تخيلتُ ملامحها الجميلة الرقيقة تزيدها نشوة الإنتصار بريقًا ونورًا، عيناها الجميلتان ترسلان الطرف في حياء فطري، نبرة صوتها الدافئة كحنان العالم تحتوي صدق الحروف باطمئنان عفوي، اعتدت علي وجودها قريبة مني كبعدٍ يعكس مشاعري وعذاباتي؛ فهي لي رفيقة ألم وصديقتي في عالم الغرباء..

شعرنا جميعنا في الفندق ببوادر انتعاشة في حضور أفواج متتابعة عقب التنحي، فقد تناقلت وكالات الأنباء العالمية أحداث الثورة السلمية المدهشة التي حدثت بشكل قدري معجز، وبدت كظاهرة جذبت السائحين ليروا وجه مصر الجديد الذي طالما أبهرهم بجماله وشبابه رغم تعاقب الحقب والأنواء.

وكنا ونحن نجلس في صالة الطعام أنا وزملائي بعد إنتهاء يوم العمل نتناول طعام العشاء، نتجاذب الأحاديث عن " مبارك " وكأن الله قد منحنا ميزة بوجوده بشرم الشيخ، ولم تسلم أحاديثنا من الخيال فقد

كان مجرد المرور من أمام الهضبة العالية قبل أن يطل القصر بمسافة بعيدة محظور علي أي انسان؛ فمنّا من يقول "رأيتُ مبارك يتريض في الهواء الطلق علي شاطئ البحر" ومنّا من يقول "سمعتُ زوجته و أبناءه يتحدثون"، حكايات وحكايات ينسجها خيالنا، فالمتاح قليل ولم يكن أحد يعلم ما تخبّؤه الأيام ...

وكنتُ أتركهم يتحدثون وأقول لنفسي الوحيدة بينهم؛ " أو تدري يا نفسي لو طلبتِ عقابًا للنظام يليق بما عانيتيه من ظلم وحبس وقهر وفقد لما كان طلبك يفوق ما حدث" وأتمتم في إمتنان إلى الله الكريم "الحمد لله" فيسمعها زملائي فيقولون لي:

- يا راجل كمّل طبقك.. شبعت أوام كده؟

***

ولم تكن الثورة في ميدان التحرير وميادين مصر وحدها، بل كانت في عقل كل واحد منا، وفي قلبه..

راويــة

عدت إلى عملي.. بروح جديدة سرت في كل الأشياء من حولنا..

ولم تكن الثورة في ميدان التحرير وميادين مصر وحدها، بل كانت في عقل كل واحد منا، وفي قلبه..

بدأنا نسأل أسئلة لم نجرؤ أن نسألها يومًا..

بدأنا نفكر أنه يمكننا أن نحاسب من يحكموننا وأن نملك القدرة على خلعهم والإطاحة بهم إذا لم يوفوا بوعودهم لنا، وكأننا أصبحنا ننظر مباشرة في أعينهم بعدما كانت أعيننا لا ترى إلا أحذيتهم.

وكأننا كنا ننتظر من سنين ما حدث كي نقف على أرجلنا ونصلح ما بنا.

وانتشر الشباب في الشوارع ينظفونها أسوة بما فعله شباب ميدان التحرير وحماته وقتما انتوُوا الرحيل عنه.

وعدت إلى حياتي الرتيبة وعملي الذي أحبه، والذي لم يبق لي غيره.

هدأت الثورة من حواليّ وفي داخلي، ورحل كل من ملأ حياتي الأسابيع الماضية.. "طارق".. و"خالد".. و"أشرف".. تذكرته.. حادثته بالهاتف، وجاء صوته الهادئ الواثق:

- أهلا يا "راوية".. حمدلله على السلامة.

- الله يسلمك.. بس أنا مكنتش مسافرة.

- مانا عارف، أنا أصدي حمدلله على السلامة من بعد التنحي.

وابتسمت ولم أعرف بماذا أرد، فأنا بالفعل أشعر أنني قد وضعت الرحال بعد سفر شاق.. وسألته:

- طيب وبعدين.. ايه اللي هيحصل بعد كده؟

- في إيه؟

- في البلد؟

وسكت "أشرف" بعض الوقت ثم أردف قائلاً:

- إنت عايزة الحق ولا الكلام المتزوّأ؟

- الحق.

- مش قبل سنتين تلاتة أما نقول إننا استقرينا.

- ياه.. سنتين! ليه؟ مش "مبارك" خلاص مشي، والجيش معانا.

- مبارك مشي أيوه، بس المجلس العسكري "مبارك" اللي معيّنه، وبعدين البلد دلوقتي من غير ريّس، والدستور متعطل، ومفيش مجلس شعب ولا مجلس شورى، ولا داخلية.. إنت مش حاسّة باللي احنا فيه ولا إيه؟

- يعني إيه برضه؟

- يعني متستعجليش، كله بأوانه، المهم.. إنت ناوية تكملي سياسة ولا هُمّ الحَبّة بتوع الثورة دول وخلاص؟

- بصراحة.. أنا مليش في السياسة خالص، ولا بحبها، ولا بفهمها، دانا الاستفتاء اللي كان الأسبوع اللي فات ده فهمت هو معمول على إيه بالعافية، وحتى لما دخلت علشان أدلي بصوتي نسيت هو المفروض أقول نعم ولا لأ.

- وقلتي نعم ولا لأ؟ إوعي تكوني قلتي نعم.

- ايوة قلت نعم.. أصلي لقيت لأ هتطول قعدة المجلس العسكري. وهو المفروض كنت قلت لأ؟

- أصلي محدش مستعد للانتخابات غير الإخوان، باقي الأحزاب محدش منهم مستعد.

- انت هتأيد مرشحي حزب إيه؟

- الكرامة.

- أظنه ده حزب ناصري.. صح؟ بس ممكن يعملوا تحالفات لو مش مستعدين.

- ماهو ده اللي غالبا هيحصل.

- أنا آخري أروح أنتخب.. بس لو ليّا دور في أي حاجة مش هتأخر.. ولما هحتاس أوي هكلمك.. ماشي؟

- ماشي.. وانا لو لقيتلك دور كويس تلعبيه هكلمك..

وضحك، وفهمت ما يعنيه بكلمة "دور"، فقلت وأنا أضحك:

- ولو كومبارس صامت مفيش مانع برضه.

وحاولت بعد مكالمتي مع "أشرف" أن أوقف نفسي عن متابعة الأخبار، وأن أطمئنها بأن الأحوال سوف تتحسن حتى ولو حاولت الدولة العميقة أن تنقلب على الثورة الوليدة وتخنقها، حتى ولو حاول "الفلول" كما أسموهم أن يستولوا على مقاعد المشهد الجديد ويعيدوا بناء إمبراطورية الفساد التي أطاحت الثورة برأسها.

غير أن كل محاولاتي هذه ذهبت أدراج الرياح، فالبلد كلها قد تحولت إلى حلقات سياسية تناقش أدق تفاصيل المشهد السياسي كل يوم، بل كل ساعة.

وتتابعت علينا أحداث لم نعرف من أين ولا كيف حدثت، وامتلأ شهر إبريل من نفس عام الثورة بزخات الرفض لإيقاع المجلس العسكري في حكم البلاد ومحاولاته للعودة للنظام القديم تدريجيًا وتجاهله لما حدث وكأن شيئًا لم يكن، وكأن دماءًا لم تسل، وكأن شهداءًا بررة لم يدفعوا

حياتهم ثمنًا لهذا التغيير.

وكنت أسمع أطراف الأحاديث ولا أشارك بها.. مليونية التطهير في الثامن من إبريل.. إطلاق الرصاص على المتظاهرين.. إحتجازهم في المتحف المصري وامتهانهم.. كشوف العذرية للسيدات..

وتجمعنا يوم "شم النسيم" كعادتنا كل عام، ووجدتها فرصة كي أعرف من "رغدة" ومن "عليّ" ماذا يحدث وسط دوامة الهواء التي أشعر أننا كدنا ننخرط بها.

ورغم أن "رغدة" و "عليّ" لا يتكلمان كثيرًا في التفاصيل إلا أنني شعرت باطمئنانهما لسير الأحداث، رغم إحجام جماعة الإخوان عن النزول رسميًا في المليونيات المتعاقبة، والإكتفاء بنزول أفرادها فرادى، لكنهما كانا - كما أعرفهما دائمًا- مطمئنين لتسليم الجيش مقاليد الأمور للمدنيين في آخر المطاف.

ولم ألح في السؤال، بل وربما ازددت سعادة بقلة كلامهما في وقت يفيض فيه الكلام عن القدرة على سماعه.

تمنيت أن أتحدث مع "خالد" على صفحة الفيسبوك، كنت أرى علامة حضوره مضيئة، وأظل بعض الوقت أنتظر أن يحادثني، أغلق الصفحة وأفتحها، أجعل من نفسي غير مرئية ثم مرئية عسى أن يراني، فلا أرى غير المقولات الدينية التي يضعها على صفحته، وكنت أشعر أن المسافات بيننا تتناءى ولا أملك حيلة.

***

تحـررتُ مـن سجنـي، شعـرتُ أنه هـو السجـين لا أنـا؛ سجين العبودية والقسوة والعمي.

خـالد

ولم تدم إنتعاشة السياحة في شرم الشيخ طويلًا ، فالسياحة شديدة

التأثر بالأحداث السياسية والأمنية.

ومع غياب الأمن وتداول الشائعات وتكرار الإضرابات والاعتصامات وعدم الاستقرار الذي ساد تلك المرحلة، دب الكساد في مجال السياحة وضاق العيش بالعاملين بها وتأثرتُ أنا كذلك بطبيعة الحال.

إلتقيتُ "عمر" فوجدته هو الآخر يعاني تبعات هذه المرحلة وإن كان وقعها عليه أشد لأنه يعول زوجة وثلاثة من الأبناء في مراحل تعليمية مختلفة.

قال لي "عمر" بصوت يشوبه القلق واليأس:

- إسمع يا "خالد".. واضح ان الفترة دي هتطوّل.. ومش عارفين الدنيا ها تستقر إمتي.. إيه رأيك لو نرجع لشغلتنا الأساسية؟

- قصدك إيه؟

- احنا مش مهندسين يا أخي؟ وانت مش عندك مكتب مقاولات والدك ومقفول؟ طيب نرجع تاني.. نشوف كام واحد من صحابنا الشغالين في السوق.. ونتفق معاهم يساعدونا لغاية ما نقف علي رجلينا.. ها .. قلت إيه؟

وبدأنا العمل علي نطاق جيد برغم كساد الأعمال بشكل عام، فقد تمكنا في وقت قصير من الإتفاق علي عمل كبير ساعدنا في ذلك كثرة الإضرابات التي تبنتها شركات عدة من القطاعين العام والخاص، الأمر الذي صبّ في وعائنا في آخر الأمر.

وانتظمت الحياة بي، ظهرتْ معالمها واستبانت حدودها، وبدأت أمي تلمح لي بالزواج، ثم تحول التلميح إلى محاولات وترتيبات ومع إعتذاري المتكرر لها، تحول الأمر إلى إلحاح واستعطاف ورجاءٍ أن أمكّنها من

رؤية أحفادٍ لها مني قبل مماتها، وأنه كفاها حرمانها من "عاطف" رحمه الله، وأن زواجي هو الشئ الوحيد الذي سيعوضها.

في الحقيقة كنتُ أشعر بصعوبة الإختيار، لم تكن "مها" تحتل ذاكرتي كما كانت من قبل..

لكنها "راوية"..

نعم.. رغم مضي الوقت، ورغم الابتعاد والانشغال، كانت هذه هي الحقيقة التي لم أستطع الهرب منها..

منذ إلتقيتها، ونظرت إلي عينيها العميقتين، قرأتُ فيهما ضعفًا حرك رغباتي الساكنة.. واحتياجًا سَرَت خطواته في نفسي الظمأي فشقت قنوات الحنين النائمة..

أفاقت رجولتي من سباتها حينما لامستُ يدها الناعمة..

شعرتُ أنها إمرأتي التي تمنيتها، وتمنيتُ لو كنت أنا رجلها.

***

بعد مضي ستة أشهر من العمل سلّمنا الجزء الأول منه وبقي عندنا أسبوع لنبدأ في الجزء الثاني، انتهزتُ هذه الفرصة وعرضتُ علي "عمر" أن نذهب سويًا في أجازة إلى شرم الشيخ في نفس الفندق الذي كنتُ أعمل به.

وافق "عمر" علي الأجازة واصطحب زوجته وأبناءه، ذهبتُ هذه المرة يسكنني شعور جميل،فبدت الرحلة أمتع وأهنأ، وقابلتُ زملائي هناك، لم يكن الحال قد تحسن عن ذي قبل، كان يشبه موج البحر، يقبل مرة ويدبر ويولي مرات، لكن ذلك الوقت بالذات في شهر نوفمبر ومع دفء الشتاء كانت هناك بعض الأفواج القليلة، وكان أكثرها من

المصريين.

كانت متعتي الحقيقية في الإسترخاء مستلقيًا علي الكرسي "التشيزلونج" أمام حمام السباحة الرئيسي، مرتديًا ملابس البحر، و واضعًا نظارتي الشمسية فوق عينيّ محتميًا بها من أشعة الشمس و جائلًا بنظراتي المختفية خلفها أتفحص أرجاء المكان في حرية، وكان "عمر" يجلس بالقرب مني منشغلًا مع زوجته وأبنائه الذين ظلوا طوال الوقت يقفزون في حمام السباحة، يلعبون و يسبحون.

وبينما أراقب الأولاد في ألعابهم المائية، سمعت صوت صراخ طفل يصدر من جهة حمام السباحة، وجدتني أقفز في الماء في إتجاه الصوت ظنًا مني أنه أحد أبناء "عمر".

مددت يدي السليمة أجذب صاحب الصوت خارج المياه، وفي قوة وثبات ألقيته بسرعة وخفة علي الأرض، وقفزت أحاول إسعافه.

كان طفلًا جميلًا ربما في السادسة من عمره، وكان يعاني صعوبة شديدة في التنفس، ويبدو عليه أنه ابتلع كمية كبيرة من المياه، بدأ لون وجهه يميل إلى الزرقة، خشيت أن يفارق الحياة، وصرت أمنحه قبلاتها بفمي حتي أفاق.

أفقت معه علي صوت تصفيق حاد من الأفراد الذين تجمعوا ليراقبوا الموقف، وأصوات الاطفال تهلل في سعادة، وأصوات أناس يلتفون حول امرأة منهارة تمامًا أوشكت علي الموت خوفًا.

وعندما رأتني أحمل طفلها رُدّت إليها روحها وبدأت الدماء تندفع في وجنتيها وشكرتني بصوت متقطع مرتجف خائف وهي تحمد الله كثيرًا، طمأنتها ونظرت إلى وجهها وشعرت أنني رأيته من قبل ولكن

متي أو أين لم أتذكر!

ظللتُ متأثرًا بهذا المشهد لساعاتٍ بعدها، وصورة هذه السيدة تتأرجح في خيالي في محاولة لتذكرها.

وفي المساء وأنا أمشي في البهو متوجهًا لأقابل "عمر" وأسرته في قاعة الطعام لتناول العشاء، رأيت هذه السيدة تتجه نحوي بوجه صبوح منطلق، أشارت لي أن أتوقف فتوقفت، وحدثتني ببشاشة:

- مساء الخير .. أنا في الحقيقة مش عارفة أشكرك إزاي علي اللي عملته النهارده.

- يا فندم لا شكر علي واجب.. أي حد مكاني كان عمل كده.

فجأة التفتت جانبا وقالت:

- محمود.. تعال.. أعرفك بالأستاذ العظيم اللي أنقذ "حمادة".. هو فين "حمادة".. هاروح انده له علشان يسلم عليك.

ذهبت السيدة تنادي ابنها، ووجدتني أصافح والد الطفل الذي احتضن يدي بكلتي راحتيه في إمتنان وتقدير وكلمات الشكر تنهال منه دون توقف..

رفعت وجهي وتطلعت إليه، دققت في ملامحه، كدت أسقط مغشيًا عليّ من هول المفاجأة؛ كان هو.. هو.. سجاني..

للقدر تصاريفٌ وأحوال..

إختارني من بين عشرات الجالسين لأنقذ ابن سجاني اللعين..

لأكون سببًا في حياة ابنه وهو السبب في موت أخي..

أُدخل علي قلبه السعادة والسرور وهو الذي طعن قلبي واستحل براءته وعبث بدقاته..

أجمعه بمن يحب وهو الذي فرق بيني وبين من أحببت..

ظللتُ أحدقُ به حتي انتبهتُ علي صوته يقول في إستغراب:

- حضرتك بتشبه عليا؟ حضرتك تعرفني؟

باغتني سؤاله، أردتُ أن أجيبه ولكنّ شيئًا ما عقد لساني..

سألني إن كنت أعرفه؟ وددتُ لو قلت له أنني لم أعرف في حياتي أحد مثلما عرفته، وأنه رابضٌ أمام عينيّ، زائرٌ منتظم لأحلامي.. يتربص بهدوئها ويوقظني فزعًا..

وددتُ لو قلت له أنني رقم "٦٤٤" ؛ رقمٌ يمكن محوه من الوجود كما حدث مع "٤٧٠" أخي.

وددتُ لو كشفت عنقي أمامه ليري الحروق التي تشوهه..

وددتُ لو أشرت لذراعي فيري ضمورها الذي أعاقه..

تمنيتُ لو عرفتُ منه ذنبي وجريرتي، خطئي ومصيبتي، في ماذا حُبست؟ ولماذا عُذبت؟ ولماذا قُتل أخي؟

- المدام قالت إنك أنقذت "حمادة" وقلت إنه واجبك.. الله يباركلك..

كان يتحدث عن الواجب، ربما ظن أن عمله أيضًا كان واجبًا عليه ليؤديه؛ وأنه أتقن عمله علي أكمل وجه..

ربما إعتنق كما إعتنق الباقون فكرة أنهم يحاربون الإرهاب ويحافظون علي الأمن ويحمون البلد والأهل، ربما تشدق ببطولاته في قدرته الفائقة علي جمع الإعترافات والتوصل إلى تنظيمات الإرهاب..

- ما قولتليش.. اسم حضرتك إيه؟

- "خالد"..

قلت له اسمي الذي ربما لم يعرفه علي مدي الشهور التي قضيتها معه.. كان لايذكر شكلي، ملامحي لم تترك حتي ولو لمحة في خياله، ولو خاطرًا يمر بباله، كان طوال الوقت يراني أمامه ظهرًا يُجلد أو عنقًا يُحرق.

- طيب يا أستاذ خالد.. ما تؤمرش بأي حاجة؟

تمنيت أن أسأله:

- بتعرف تنام باليل؟ بتحط راسك ع المخدة وضميرك مرتاح؟ مراتك عارفة إنت بتعمل إيه وقادرة تعيش معاك؟ بتحضن ولادك وتديهم حنانك وتبص ف عينيهم وإنت حاسس بكل المشاعر دي؟ بتعرف تحب؟

وظللتُ أقول وأقول..

وأظنه يسمعني دون إجابة..

لم يعد لديه ما يقوله..

رأيتُ قسمات وجهه تتغير كأنما ترجوني أن أصمت وأكف عن الحديث..

كانت زوجته قد اقتربت إلى جوارنا، وربما شعرت بما أقول، سمعتُ صوتها الطلق البرئ ينادي:

- " حمادة ".. يالّا سلم علي عمو.. اديله بوسة.. وقوله شكرًا.

- ممكن تشيلني يا عمو؟

حملتُه بذراعي، قبلني، نظر إليّ في براءة وحنان وشكرني.

ضممته إلى صدري، شعرت بذات الحنين الذي أشعر به حينما أضم " كريم "، قبلته، نظرتُ إلي صفاء عينيه وإلى الإمتنان في عينيّ

والدته..

تضاءلت في ملامحهما الطيبة صورة سجاني، راقبتهم يبتعدون، رأيته يهمس لزوجته بكلمات توجهت علي إثرها إلي أعلي، ورأيته يتوجه لمكتب الإستقبال.. يطلبُ المغادرة، كان القلق باديًا علي قسمات وجهه واضطراب خطواته، وقف بالقرب من الباب الرئيسي منتظراً يتلفتُ يمينًا ويسارًا بعينين زائغتين..

أحسستُ أنني أسمع دقات قلبه، وأري نبض عروقه..

وما إن أقبلت زوجته وأبناؤه حتي إلتقطهم بين ذراعيه في قلق، كهاربٍ إلي عالمٍ مجهول، تطارده أعين السجناء، تلاحقه أنّات الأبرياء ولعناتهم..

في هذه اللحظة.. تحررتُ من سجني، شعرتُ أنه هو السجين لا أنا؛ سجين العبودية والقسوة والعمي.

تركتهم.. ورفعتُ رأسي إلى السماء، تنفست بعمق شديد، وحمدتُ الله.. فدبيب الحرية يسري في عروقي .

***

وهل يوجد ما يسمى بالحب الحقيقي؟
أم أنها جميعها مجرد حكايات.. يحالف الحظ بعضها، ويتخلى عن بعض..

راويــة

ولم يكد يطل علينا أكتوبر من نفس العام حتى جاءتنا معه أحداث أدمت قلوبنا، ولا نعرف من أين أطلت..

وكنت أظننا قد ودعنا الفتن الطائفية من يوم قامت الثورة وكشفت عن الفاعل الحقيقي لأحداث كنيسة "القديسين"، وعرّفتنا الأيدي الخفية لوزارة الداخلية أيام "مبارك" التي كانت تحيك مؤامرات الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين.

ولم تختلف بداية أحداث أكتوبر عن بدايات الأحداث الطائفية التي اختبرناها طويلًا؛ أخبار عن خلاف حول كنيسة، ثم تصريحات لمحافظ أسوان، ثم اندلعت بعدها المظاهرات في كل مكان، وندور برؤسنا نبحث عمن يأخذ زمام الأمور بيده ويئد الأحداث التى باتت تلتهب يومًا بعد يوم، فلا نجد.

حتى كان يوم التاسع من شهر أكتوبر، أفجعتنا صور المتظاهرين عند "ماسبيرو" وقد دهستهم العربات الحربية فكسرت جماجمهم وقطعتهم أشلاء وكأننا نحارب جيشًا آليًا جاءنا من الفضاء.

أنظر إلى الصور المنشورة غير مصدقة لما أرى..

وصرنا نعد الأيام كي نصل لانتخابات مجلس الشعب والتي تعد أولى خطواتنا باتجاه تثبيت دعائم دولتنا الجديدة من بعد الثورة، غير أن الأحداث التي كانت تحدث كل يوم كانت تباعد بيننا وبينها.

وجاءنا نوفمبر بأحداثه والتي عرفت بأحداث "محمد محمود" إعتراضًا على فض اعتصام أهالي الشهداء بالقوة، واعتراضًا على وثيقة "السلمي" التي تعطي وضعًا مميزًا للجيش في الدستور، وكأننا عدنا إلى أيام الثورة الأولى، غير أن جروحنا هذه المرة باتت أقبح وأعمق.

ولم أكن أتصور عندما كنت أتحدث مع "أشرف" في ذاك اليوم عن دور لي قد يأتي أن تكون هذه المشاركة في أحداث كمثل هذه الأحداث، فلم تمتلكني تلك القناعة التي كانت أيام الثورة الأولى، بأن هذا هو الحق وأن هذا هو الباطل وأننا في كل الأحوال فائزون، بل تاهت القناعات.

كنت أذهب إلى المستشفى الميداني في "ميدان التحرير" والتي امتلأت بشباب حر وأطباء يحبون مصر، بل وكان الطلبة السوريون بكلية الطب حريصين كما الطلبة المصريين على التواجد يوميًا، وكأنما يعرفون أن نجاح ثورة مصر هو الخطوة الأولى لنجاح الثورة السورية، وصرت أنتظر مسيرات الألتراس اليومية وهي تعلن عن قدومها ودخولها الميدان بصياحهم المميز وأصواتهم القوية.

أما أنا فكنت لا أعرف معرفة اليقين ما هو الصواب وما هو الخطأ في كل ما يحدث حولي، أجري مع من يجرون، وأحمل المصابين مع من يحملون، وأسارع لتضميد جراح من ينزفون، وأنا لا أعرف من هؤلاء الذين يلقون قنابلهم الغازية حتى يصل البعض للتشنج منها؟

ومن هؤلاء الذين يحصدون عيونًا طاهرة لا ترى إلا حب مصر؟

ومن هؤلاء الذين يطلقون رصاصهم على صدورٍ لا تتغنى إلا باسم مصر؟

ومن وراء كل هؤلاء؟

وإن كانت هذه الثورة هي الحق فأين باقي شركاء الثورة؟ وإن كانت باطلًا فماذا يفعل طبيب مثل الدكتور "خالد" و"رغدة" الذين ينتميان

إلى الإخوان في المستشفى الميداني؟

وأقنعتني السياسة بدهاليزها التي لم أعد أفهم أيًا منها أنها لعبة تفوق قوانينها قدراتي على فهمها، فقررت ألا أحاول، وأن أحسن الظن بكل من رأيتهم بعيني في ميدان التحرير أيام الثورة الأولى.

وأعقبت أحداثَ "محمد محمود" أحداثُ "مجلس الوزراء" واعتصم الثوار أمام رئاسة مجلس الوزراء يمنعون رئيس الوزراء الذي عمل سنينَ إبّان حكم "مبارك" من الدخول، وأصبحت ممارسات الجيش مع الثوار أعنف مما فات، بل وباتت صورة الجيش في عيوننا على حافة الإحتراق.

حادثتني "نادية" أخت "مجدي" على هاتفي، لم أعرفها في البداية، استغرقت بعض الوقت كي أتذكرها، وسعدت بمكالمتها لي، فلطالما أحببتها وارتحت لحديثي معها، كانت تدعوني لزواج ابنها "هيثم"، وحاولت أن أعتذر عن الحضور غير أنها أصرت:

- لازم تيجي يا "راوية" ولّا والله أزعل، ده "هيثم" مصمم إن طنت "راوية" لازم تكون موجودة، إحنا متعرفيش إحنا بنحبك إزاي.

- مفيش داعي يا "نادية" علشان محدش يكون متدايق من وجودي.

- محدش هيتدايق يا"راوية".. "مجدي" خلاص إتجوز من كام شهر، انت عرفتي ولا لأ؟

- لأ معرفش، ألف مبروك.. ربنا يسعده.

- "زمزم عبد القادر".. مدام "زمزم".. السورية، صاحبة أتيلييه "دمشقية" هنا في "المهندسين"، إنت تعرفيها؟

- مش واخدة بالي.

- هتيجي.. علشان خاطري.. مش هسيبك إلا أما توعديني إنك جاية.

- خلاص حاضر يا "نادية" وألف شكر.

- هنستناكي.. يوم الجمعة اللي جاية.

وأنهيت مكالمتي معها وأنا أسائل نفسي: "كيف تقدرون على الفرح ودماء الشباب على الأسفلت لا تجف؟".

في اليوم الثاني وبعدما أنهيت عملي توجهت مثل كل يوم إلى الميدان، فوجئت بمكان المستشفى الميداني خالٍ، وعرفت من المتظاهرين هناك أن قوات الجيش قد هاجمت مستشفيات الميدان بعد منتصف ليل أمس، وأنهم نقلوها لتحتل مدخل إحدى العمائر بجوار "هارديز" في ميدان التحرير.

توجهت إلى هناك، لم أجد المستشفى التي أعرفها، وجدت مجموعة من البطاطين مفروشة على الأرض في ممر ضيق بين العمارتين ، و يقوم المتطوعون بأدواتهم البسيطة بإسعاف المصابين والذين لم تتوقف موتوسيكلات المتطوعين عن احضارهم بعد إصابتهم.

إصابات بالرأس وبالصدر، بالخرطوش وبالرصاص الحي، وما كان مفزعًا حقًا هو حالات التشنج التي كانت تتزايد من جراء الغازات المسيلة للدموع والتي شاع أنها ربما تعدت مدة صلاحيتها، أو أنها ربما تحمل موادًا كيميائية محظورة!

هدأ الحال بعض الوقت في المستشفى الميداني، وسمعت صوت أحدهم يناديني، كان راقدًا على الأرض، كان جريحًا وقد لفت رأسه بالشاش، اقتربت منه.. ورأيته:

- "بكر"..

ساعدته على الجلوس، وجلست إلى جانبه..

- "بكر".. الحمد لله إنك هنا..

ابتسم "بكر" وقال:

- الحمد لله إني في المستشفى الميداني وراسي مفتوحة وقاعد على الأرض؟

- لأ.. الحمد لله إنك في الميدان.. الحمد لله إني قابلتك.. والحمد لله إنك بخير..

وكان جالسًا أمامي طبيب شاب حديث التخرج اسمه "سامي"، وعرفت أنه مثله مثل "بكر" لا ينتمي لأي حزب أو جماعة سياسية، وقال "سامي" بهدوء:

- هو احنا رايحين على فين؟

رد "بكر" بثقة: إحنا بنكمل اللي بدأناه.

سامي: أكثر حاجة بتحبطني لما حد يقول إن كل ده كان مدّبر وإننا بننفذ اللي هم رسمولنا نعمله، احنا مش عارفين أساسًا إحنا ضد مين دلوقتي.

بكر: ممكن طبعًا يكون جزء منه مترتب قبل كده بس أكيد مش كله، وأكيد هم مش ربنا، فالأحسن منحاولش نشوفهم كأشخاص، نحاول نشوفهم ككيان، هم كلهم كيان واحد كان راكب على البلد وسارقها، وهو ده اللي بيحاربنا دلوقتي.

سامي: ماهي المشكلة إن الوشوش بتتبدل، لدرجة إن الواحد مبقاش

عارف مين الكويس ومين الفاسد.

بكر: مانا علشان كده بقولك الأحسن منركزش على الوشوش، نركز على الهدف، احنا زي اللي محبوس في بطن البير ولازم علشان يطلع يفضل يتسلق شوية شوية، ومنشيلش عنينا عن السما فوق لحد ماربنا يريد ونطلع.

أعجبني تشبيه "بكر"، كنت أستمع إليهما وأنا صامتة، تذكرت أيام طلبت الإنفصال من "مجدي" لم أكن أفكر ساعتها إلا في الخروج من البئر، وعيني على السماء.

مرت عليّ كثير من الأوقات في حياتي شعرت فيها بأنني عاجزة، غير أن هذه الأيام كانت الأكثر عجزًا والأكثر ضياعًا من بين أيام حياتي، إذ لم أكن وحدي التائهة أو العاجزة، لكنني كنت أشعر بنا جميعًا تائهين.. تحاول أيادٍ نعرفها ولا نراها أن تفرقنا.. وأن تغرقنا..

وبينما كنا نحاول بأدواتنا القليلة وآمالنا المنهكة، وقلوبنا الحزينة أن نعبر بيومنا دون خسائر.. سمعنا جلبة وصراخ عند مدخل الممر وسمعناهم يصرخون: إجروا.. كله يجري.. الجيش..

ووجدت كل من حولي يحملون الجرحى ويجرون إلى فتحة الممر الخلفية، أسرعت معهم في ممرات مظلمة أسفل عمارات وسط البلد، ولم أكن أعرف أنها تتصل ببعضها بهذا الشكل، وتسارعت دقات قلبي، وملأني الخوف، وقد كانت حكايات المقبوض عليهم تملأ أحاديثنا، ولم نكن نعرف إلى أين يأخذونهم.

وزادت الممرات ظلمة ولم أعد أرى أين أنا، فممدت يدي ألامس الحائط وقد تملكني الرعب والتصقت بالحائط البارد.

تجمدت أطرافي وأنا هادئة بمكاني وأكاد لا أسمع إلا دقات قلبي المتسارعة، أحاول أن أوقف أنفاسي كي أستطيع أن أسمع ما حولي.. أين أنا؟ هل هم قريبون مني؟ ومن هم؟ وأين الباقون؟ وماذا سيحدث لي؟ وما الذي جاء بي إلى هنا؟

سمعت خطوات تقترب مني، كنت أقف في ركن مظلم، وكان باستطاعتي أن أرى من يقترب..

ورأيته.. رأيت خياله يقترب بسرعة.. يتلفت حوله بحذر.. يلتصق مثلي بالحائط.. تتسارع أنفاسه.. ولما اطمأن إلى أن أحدًا لا يراه ظل ساكنا يلتقط أنفاسه، ثم سمعت صوته يعلو نحيبًا مكتومًا، وانثنت ركبتاه كأنهما لا تحتملان جسده النحيف عليهما، واستسلم للجلوس عليهما مستندًا بظهره على الحائط، وصوت نشيجه يعلو، ويحاول هو أن يخفيه بكف يده على فمه..

كان عسكري من الجيش..

وكان يبكي..

يبكي.. وهو يطارد المصريين مثله في عمائرهم وبيوتهم.

ولم أستطع أن أنام ليلتها، ظل خيال عسكري الجيش وهو جالس على الأرض ماثلًا أمام عيني.

انتظرت الصباح، وما إن بلغت الساعة التاسعة حتى حادثت "أشرف" على الهاتف:

- ممكن أقابلك؟

- أيوة ممكن.. بس خير.. فيه حاجة؟

- أجيلك فين؟

وذهبت للقائه في مكتبه بشارع "البطل أحمد عبد العزيز"، رحب بي، وكان وجهي جامدًا وعيناي منتفختان.

- مالك يا "راوية"؟

- إنت ليه مبتعملش فيلم عن اللي بيحصل دلوقتي؟ مش انت اللي عملت فيلم قبل كده عن صراع المصريين في حرب العراق؟ واللي بيحصل دلوقتي مش صراع مصريين برضه؟ وبيحصل بينه وبين مكتبك عشر دقايق..

وسكت "أشرف" ولم يرد، بدا وكأنه قد سمع كلامي قبلًا، وربما حادث به نفسه، ولكنه لم يكن يتوقع أن يسمعه مني.. وأكملت قائلة:

- عسكري الجيش اللي بيجر البنت على الأرض ده بدل ما يحميها، والتاني اللي بيضرب الست الكبيرة بالكف بدل ما ياخد بإيديها، والتالت اللي بيعيط علشان أجبروه يضرب أخوه.. ليه حالنا يوصل لكده؟ وانت فين من ده كله؟ إنت مش كنت ف الميدان يوم خمسة وعشرين، مش كنت في الثورة؟ ليه معملتش حاجة عليها؟ أمال كنت بتعمل إيه هناك؟ ولا انت كنت بتتفرج؟ كل كلامك وتصريحاتك وأحاديثك عن ثورة يوليو اللي عمرنا ما شفناها، طيب والثورة دي؟.. والناس دي؟.. والجيش ده؟.. والعساكر دي؟.. مين هيتكلم عليهم؟ ولا مستني بعد ما الحدوتة تخلص تشوف مين الكسبان وتعمله فيلم "رد قلبي"..

وظل "أشرف" صامتًا ينظر لي بهدوء، كأنما ينتظر أن أفرغ ما في جعبتي.. وكان واضحًا أنني على شفا الإنهيار. وأكملت وصوتي يتهدج:

- معقول يكون ده اللي انت ناوي عليه؟ معقول تكون الحكاية كلها تمثيلية من أولها لآخرها؟ وانت كنت هناك يوميها بتمثل؟ وميدان

التحرير حكاياته كان كلها تمثيل في تمثيل؟

- لأ مش تمثيل.. بس الموضوع مش بالبساطة اللي انت متصوراها دي.

- يعني إيه؟

- يعني إحنا مش هنخبط في جيشنا. لو عملنا كده يبقى على البلد السلام.

- مش المفروض إنت بتقول الحقيقة في أفلامك؟ ولا دي لعبة سياسة؟

- حاولي تفهمي يا "راوية".. إحنا لينا حدود، زي مانت كده ليكي حدود في الدوا اللي بتديه للعيان، مانت ممكن تديله جرعة كبيرة وتقضي على المرض بس المريض هيموت. إحنا كمان منقدرش نقول كل حاجة.. علشان.. علشان..

- علشان إنت متموتش.. إنت بتتكلم زي "علي".. الحدود والقدرات والممكن والأحسن..

- "علي" مين؟

- "علي" جوز "رغدة" أختي.. الإخوان.. إنت بتتكلم زيه..

- أنا؟ بتكلم زي الإخوان؟ أنا؟

- مش مهم.. أنا خلاص معدتش مسدأة حد فيكم.. كلكم.

وحملت حقيبتي وغادرت.

اليوم هو الجمعة.. حفل زواج "هيثم" والذي دعتني إليه "نادية"، ولم أعرف كيف سأذهب بحالتي هذه إلى الحفل لأقابل ناسًا اعتزلتهم منذ ما يقرب من عام ونصف، وسأذهب وحدي، وباتت الدعوة ثقيلة على نفسي غير أنني وعدت "نادية" بالذهاب.

وتمنيت ألا أرى "مجدي" وألا أرى أحدًا ممن كنت أعرفهم، وما إن دلفت إلى قاعة الحفل حتى وجدت "مجدي" أمامي، وكان يتجه خارجًا من القاعة، وما إن رآني حتى صاح بطريقة لامبالية وهو يكمل طريقه: ياه "راوية" إزيك.. إنت لسه عايشة؟

ولم أعرف بماذا أرد على لهجته المستهزئة، تلفت حولي وأنا أخطو بخطواتي المترددة، ورأتني "نادية" فأسرعت ناحيتي ورحبت بي، واصطحبتني إلى حيث يجلس العروسان، فهنأتهما، ثم أخذت بيدي ناحية إحدى موائد والتي كنت أعرف بعض الجالسين عليها.

جلس إلى يميني طبيب في المستشفيات العسكرية برتبة لواء كنت أعرفه من قبل وبجواره زوجته التي كانت صاحبتي في يوم من الأيام وجلست على يساري سيدة سورية متزوجة من رجل أعمال مصري جلس بجوارها، وإلى جوارهم لواء بالحرس الجمهوري وزوجته، ثم رجل أعمال شريك لمجدي في شركاته وزوجته.

وكان الحضور صامتًا في البداية يتابعون صور العروسين على شاشة العرض الكبيرة، ثم دار حديث عن الثورة السورية والتي كانت صور شهدائها تتابع على الفضائيات، وتعجبت من تصميم السيدة السورية على أن هذه الصور جميعها مزورة وأن كل هؤلاء أعداء لبشار الأسد والذي تؤيده هي بشدة، وأحسست أن معادلة الخير والشر والصدق والكذب سواء في كل الأماكن وكل الثورات.

ثم انقلب الحديث للكلام عن الثورة المصرية، وكان معظم الجلوس حول المائدة ممن أضرّت الثورة بمصالحهم، فصاروا يتحدثون عنها وكأنها زوبعة في فنجان آن لها أن تخمد، وما هي إلا بضعة أشهر ربما

بضعة أسابيع ويعود الحال إلى ما كان عليه، وتعجبت لتباين الحال بين هنا وهناك في "ميدان التحرير" وشوارع "وسط البلد".

وما إن تطرق الحديث إلى المجلس العسكري وفرصه في البقاء والاستمرار وضبط الأمور حتى سألت اللواء الجالس بجواري عن أعضاء المجلس العسكري.. هل يعرفهم وهل هم مخلصون لمصر؟ وهل ما يشاع عن استعدادهم للتفريط بجزء منها في سيناء صحيح؟

وأجابني اللواء بهدوء ملأني ثقة في كلامه:

- بصي يا دكتورة "راوية" بصرف النظر هم بيعملوا ايه ولا بياخدوا كام ولا بيكسبوا ايه، بس كل واحد من اللي في المجلس دول له تاريخه، وكلهم حارب من أيام سبعة وستين، وكلهم عارفين قيمة كل شبر ف مصر، والبلد دي غالية عليهم.

- طيب والجيش؟ ممكن زي ما بيقولوا يحصل انقلاب؟

- مظنش.. جيشنا أهم وأجمل ما فيه الولاء التام.. من أصغر واحد لأكبر واحد.

وابتسمت بارتياح.. وأنا أودع الجالسين معي على المائدة، وشكرت لنادية دعوتها وحاولت هي استبقائي:

- متخليكي شوية كمان .. دي لسه الحفلة مابتدتش.

- معلهش.. علشان بس متأخرش.

- شفتي مجدي ومراته؟ أهم اللي قاعدين هناك دول.. والله لمّا تبقى مين.. مفيش زيك يا "راوية".. شفتيها؟

- أيوة شفتها.. وألف مبروك لهيثم.

ولم تمض بضعة أيام حتى ودعنا عام ٢٠١١ بكل مابه من أحلام

تحققت ثم باتت بعد تحققها بعيدة المنال.

وقضيت ليلة رأس السنة وحيدة في غرفتي بمنزلنا بالمنيل، أوى أبي وأمي إلى فراشهما مبكرين، وجلست أنا في فراشي معلقة عينيّ على صورة البحيرة على الحائط..

حدث لي في هذا العام ما لم يحدث لي طوال العمر، وكأنني عشت أيام حياتي كلها أحلم بأحداثه وأستعد لها.

تذكرت "مجدي" جالسًا بجوار عروسه في حفل الزواج..

وتذكرت "طارق" وهو يحاول الإمساك بيدي ليستبقيني بجواره..

هل أخطات بإبعاده عني؟

وكيف لم تعد حكايته تثير حنيني كما كانت تفعل سنين طويلة؟

هل كان حبًا حقيقيًا؟

وهل يوجد ما يسمى بالحب الحقيقي؟

أم أنها جميعها مجرد حكايات.. يحالف الحظ بعضها، ويتخلى عن بعض..

ولماذا لا أرى أيهم في صورة البحيرة على الحائط؟

لا أتذكر عندما أنظر إليها سوى "خالد"..

أحاول أن أتجنب التفكير فيه من يوم أن أخرجني من حياته وصفق الباب بوجهي..

لكنني كلما نظرت إليها تذكرته.. وجهه المضيء يقترب وأنا أخطو ناحيته يوم التقينا..

وأغمض عينيّ بنشوة وأنا أتذكر وقتما وضعت كفي بكفه.. وتسري بجسدي رعشة كنسمة الفجر الحانية..

ثم أتذكر كلماته لي في آخر حديث دار بيننا على الهاتف "وانا ليه لازم أعرف كل حاجة عنك؟ وبعدين إنتِ حرة تتجوزي اللي انتِ عايزاه.. أنا مالي.. دي حاجة تخصك".

وأعود أنظر إلى صورة البحيرة.. وأنتبه إلى الشاطئ الخالي.. ربما آن الأوان كي أسدل الستار على حكايتك أنت أيضًا يا "خالد".. وليحملها هذا العام الراحل مع ما حمل من أحلام لم تتحقق.

***

نضعف ويملؤنا اليأس حتى إذا صرنا معًا.. وتشابكت أيدينا.. كأنما شرارات الأمل تضيء كالحريق.. وما أجمل أن يحترق اليأس.

راويــة

وولد عام ٢٠١٢ بمخاوف جديدة، أظن أكبرها خوفًا من أن نكون قد فقدنا ثورتنا، أو أن تكون محاولات تخريب بوصلتها قد أفلحت.

أطل علينا عام ٢٠١٢ ونحن غرقى في حالة من التخوين والفوضى، وانقسم شركاء الأمس إلى قسمين.. قسم يؤيد خطوات تسليم السلطة للمدنيين وإن أبطأت خطواته، وقسم آخر يرى المجلس العسكر ذيلًا من ذيول العهد السابق يجب أن يقطع بالقوة وبلا مهادنة.

وكنت إذا استمعت إلى أنصار هذا الفريق أقنعوني بحجتهم.. فالبلد لا تحتمل اضطرابًا يودي بآمال الاستقرار بها، وليست سوريا بمواجهاتها العسكرية للشعب منا ببعيد، ولمّا أستمع لأنصار الفريق الآخر أتعاطف مع وجهة نظرهم، فكل الخطوات التي خطاها المجلس العسكري كانت في الإتجاه المعاكس للثورة، ولم نجنِ من كل ممارساته سوى ترنحًا اقتصاديًا يهدد المرحلة الإنتقالية بالفشل، وفوضى باتت تنتشر في كل ركن من أركان البلاد، وانتشرت السرقات وقطع الطريق وأعمال البلطجة والتي ساعدها اختفاء رجال الشرطة تمامًا من الشارع المصري، وإن حدّ من انتشارها طبيعة شعبنا الطيب.

وأصبحت المسيرات جزءًا لا يتجزأ من البرنامج اليومي، احتجاجًا على ممارسات الجيش في الشارع المصري. كما أصبحت الوقفات الإحتجاجية للمطالب الفئوية حدثًا يوميًا آخر تعودنا عليه.

وجاءت الذكرى الأولى لثورة الخامس والعشرين من يناير وكأنها فرصة أخرى لنا كي نمد أيدينا ونحاول اللحاق بحلمنا الذي ما يلبث أن يقترب إلا ويبتعد من جديد.

اتفقت مع "رغدة" أن أنزل معها هي و"عليّ" وأولادهما للمشاركة

في مسيرات يوم الذكرى الأولى للثورة.

تقابلنا أمام جامعة القاهرة.. كان الحضور كثير، وقد جهز المنظمون للمسيرة نعوشًا رمزية لشهداء الثورة، وسار حملة الأعلام في المقدمة ووراءهم حاملو الطبول ثم حاملو النعوش.

كان الركب مهيبًا، والحضور يزداد، وفي وسط المسيرات كان شباب الألتراس بهتافهم المميز وألعابهم النارية يشعلون الحماس..

كنا نرفع من أصواتنا نرد على الهتاف وكأننا نُعلِم الثورةَ أن عشاقها لم يموتوا..

وكأننا نُسمِع مصرَ أن أبناءها لم ييأسوا ولم يتعبوا..

وكأنما كنا نجدد العهد على أن نكون لها وقتما تنادينا.

وانتبهت إلى يد تقبض على ذراعي وسط الحشود، والتفت، واستغرقني الأمر بضعة ثوانٍ كي أعرفها.. "مروة".. صديقتي من أيام الدراسة في الكلية، والتي لم أرها منذ سنين..

واحتضنتني دونما كلام، وطال عناقنا، وانتبهنا إلى أحدهم يناديها "ماما.. يلّلا"، ونظرت إليها، كانت كما هي، ربما امتلأت قليلًا، وربما كبرت، ولم نتكلم، فصوت الهتاف كان عاليًا، وأكملنا سيرنا حتى وصلنا إلى كوبري قصر النيل مع آذان العصر، وأقيمت الصلاة.

دخلنا ميدان التحرير والذي امتلأ على آخره كأيام الثورة الأولى، وعرفتني "مروة" بإبنيها "عبد الله" و"عبد الرحمن"، ووقفنا أنا وهي و"رغدة" نتحدث، وتباينت مواقفنا، فكانتا مؤيدتين لسلمية المواجهات مع المجلس العسكري ، بينما كنت أرى حتمية انتزاع الحكم المدني من بين براثنه، وكنت واثقة فيما أقول، و أتحدث من موقع من يعلم

بمجريات الأحداث، فأنا هنا في قلبها كل يوم..

قلت: إنتم متعرفوش اللي حصل هنا الكام أسبوع اللي فاتوا.

وانتبهت إلى أن "رغدة" هي الأخرى موجودة في المستشفى الميداني بشكل مستمر، فأكملت: مع إنك موجودة هنا يا "رغدة" على طول وعارفة إيه اللي بيحصل.. بس إنت ملتزمة بخط الجماعة اللي انتي بتنتمي ليها.. أنا يمكن علشان بسمع لكل الناس اللي هنا والثوار من كل التوجهات..

رغدة: بس الثورة مش ميدان التحرير بس..

فقلت: يعني إيه؟ مش هو ده اللي احنا عايشينه؟

رغدة: الثورة مش على "المجلس العسكري" بس.. الثورة على كل النظام القديم وده مش هيشيله برضه المظاهرات بس، لازم كل مؤسسات الدولة تلحق هي كمان بالثورة.. وده مش هيكون باللي بس بيحصل هنا في الميدان.

مروة: ولا دلوقتي بس.. يعني بيتهيألي الثورة موجودة من زمان.. أنا قلتلك يا "راوية" على ابن عمي اللي سجنه "عبد الناصر"زمان، وخرج من المعتقل عقله رايح، وهو ده مكانش جزء من الثورة؟ بلاش ابن عمي.. "رغدة" نفسها أيام ما كنا في الكلية، كنا احنا مفيش ورانا غير المذاكرة وهي علطول في المظاهرات والمعارض السياسية، أصدي أقولك احنا بنظلم الثورة لو قلنا انها فقط اللي حصل من سنة هنا في "ميدان التحرير".. الثورة هي كل الناس اللي قالوا "لأ" من يوم ما جاء الحكم العسكري.

رغدة: وأرجع أقولك وبكرة هفكرك.. مش "المجلس العسكري"

بس.. "المجلس العسكري" واجهة لفساد أعمق، اللي جثم على البلد تلاتين ولا ستين سنة مش بسهولة كده يمشي، لسه شوية..

قلت: بس كمان من غير اللي حصل في "محمد محمود" ومجلس الوزرا" مكانتش انتخابات مجلس الشعب اتعملت.

رغدة: واحنا ليه لازم نفصل الناس نصين؟ وليه لازم نقول ده عمل وده معملش؟ وبعدين عملنا الانتخابات.. ما هو مفيش حد متنظم ومستعد غير الفلول، يعني نسلمها لهم تسليم مفتاح؟

قلت وأنا أرمي ببصري على اليافطة في وسط الميدان وأتذكر ملامحه أيام الثورة الأولى: الوضع كان أجمل وأقوى لما كانت الناس كلها مع بعض، ومحدش بيخوّن حد.

مروة: ماهو أمن الدولة القديم شغّال برضه.. وهم هيسكتوا؟ ماهم لازم يغرقوا المركب، وأسهل طريقة علشان تغلب اتنين إنك توقع بينهم.

وبرغم اختلافي معهما، إلا أنني أحسست أن الصورة تكتمل..

الثورة ليست ما حدث في "ميدان التحرير" فقط..

وليست ثورة على "مبارك" ولا المجلس العسكري فقط..

وليست ما حدث منذ عام فقط..

تتسع الصورة.. فيفسر باقيها ما كان خافيًا منها.

وزادني هذا الإحساس طمأنينة إلى قدرتنا على العبور بمصر لبر الأمان، فلا العنف وحده يقدر على الخروج بنا من عنق الزجاجة الذي بتنا نختنق فيه، ولا السلمية وحدها تقدر على دفع المجلس - الذي يحكم قبضته على المؤسسة الأقوى في مصر- على الرحيل، ولن نقدر على النجاة إلا بأن نكون معًا.

في طريقنا للخروج من الميدان تذكرت يوم سرنا معًا أنا و"خالد".. حديثه لي.. حاولت استحضار صوته، كدت أن أنساه..

وقبضت على يدي وأنا أتذكرها مختبئة بيده، وكأنني أحتفظ بقبضته في يدي.. وتعجبت.. كيف يداعب طيفه خيالي حتى هذه اللحظة، رغم أنه رحل عني ولم ينظر خلفه.

أمضينا أنا و"مروة" الأيام التي تلت ذكرى الثورة الأولى على الهاتف نسترجع مامضى من ذكرياتنا ونحكي ما حدث لكل منا، تزوجَت مروة ونحن في بداية سنة الإمتياز وشهدت معها ولادة ابنها الكبير "عبد الله"، ثم تزوجَت، ولم يكن "مجدي" يرحب بصداقاتي، وشيئًا فشيئًا تباعدنا ولم أعد أعرف عنها شيئًا.

وقابلتها بعدها صدفة وكنت بصحبة "مجدي" وكانت معي "نور"، كانت وقتها في الثالثة من عمرها، ولم يدم حديثنا سوى كلمات قليلة، ولم أرها منذ ساعتها.

حدثتني عن زوجها الذي يعمل معلمًا للرياضيات، وسافرت معه منذ عدة سنوات إلى بلد عربي، ولديها "عبد الله" في السنة الثالثة الإعدادية، و"عبد الرحمن" في السنة الأولى الإعدادية.

و حدثتها عن "طارق" وعن "مجدي" وكيف انتهت حكاياتي معهما، وحدثتها عن "خالد".. وكيف تقاربنا وكيف ابتعد.

- بس هو مابعدش يا "راوية".. إنت اللي قلتيله يبعد.

- أنا؟

- أيوة إنت.. واحدة رايحة تزور واحد ومعاها خطيبها القديم اللي حكيتله قبل كده إزاي كانت بتموت فيه.. يبقى هي عايزة تقوله إيه؟

– أنا كنت عايزاه يعرف إن"طارق" انتهى من حياتي، كنت عايزاه يشوف كده بنفسه.

– بس انت ماقلتيلوش كده.

– قلتله في التليفون، بس هو مكانش سامعني، هو كان كل همه يقولي إني ولا حاجة بالنسباله، ويوصّل لي إني أبعد عنه.

– مظنش.. الموقف كان معقد، ومكانش ليه لازمة أصلاً، على العموم ممكن كل حاجة تتصلح.

– إزاي؟ أصدي .. هو مشي خلاص.

وسكتت "مروة" وطال سكوتها..

– "مروة".. إنت لسه معايا؟ إنت مشغولة؟ أتكلم وقت تاني؟

– لأ.. مش عارفة فيه إيه.. الناس نازلة الملعب ليه؟

– ملعب إيه؟

– مباراة الأهلي والمصري، أصلي "عبد الله" سافر مع خاله "محمد" يشجعوا الأهلي، أنا بتفرج على المباراة دلوقتي.. بس مش عارفة فيه إيه.. استر يارب..

– إن شاء الله يرجع بالسلامة، أنا مش فاتحة التليفزيون.. هافتحه دلوقتي.. على قناة إيه المباراة؟

وأنهيت حديثي مع "مروة" وأنا أتابع أحداث المباراة، وأدعو الله بالسلامة لمصر ولعبد الله ولمحمد.

ولم نكن نتصور أن تنقلب الأحداث بهذا العنف والقبح الذي كان، ولم نكن نتصور أن يبلغ الإجرام بالمتربصين بالثورة أن يطعنوا مصر في قلبها بمثل هذه الوحشية، وأن نشاهد القتلة يحملون المشجعين ويلقونهم

من فوق المدرجات، يخنقونهم ويقتلونهم بدم بارد، وأن يزهقوا كل تلك الأرواح في ذلك الوقت القصير وعلى مرأى ومسمع من كل المصريين، تحطيمًا لكل أحلام الحرية والأمان.

ولحقت بمروة إلى محطة مصر ننتظر القادمين من "بورسعيد" ونتمنى أن يخيب ما توقعناه، وأن نرى "عبد الله" راجعًا مع أخيها سالمين، وأن تكون كل الأخبار التي سمعناها وكل الصور التي رأيناها كذبًا أو كوابيس.

لكن "عبد الله" عاد مسجى على خشبة بجوار خاله.

وكأنما أحضروا "نور" إلىّ يوم اغتالتها يد الفساد والخيانة..

وكأنما دمها الساخن لا أزال أحسه على أصابعي..

وكأنما رائحة الموت لاتزال تملأ أنفي..

وكأنما هي نفس اليد التي تعودت أن تسرق منا أغلى ما في حياتنا، وأن تنتزع كل الأحبة من بين أيادينا..

نور..

عبد الله..

أمضيت الأيام التي تلت حادثة "بورسعيد" مع "مروة"، لم أتكلم خلالها كلمة واحدة، ولم ترد هي بكلمة على كل من جاء ليعزيها.

أن يفلس قاموس الكلمات من كلمة تصف ما حدث، أو تصف مقدار الخسارة عند فقدان الابن..

رافقني طيف "نور" في كل لحظاتي في بيت "مروة"..

نحن نعيش حياتنا.. حتى إذا رُزقنا بالأبناء.. عشنا لحياتهم هم، وارتضينا أن نمنح كل أنفاسنا ونبضات قلوبنا لهم..

فأي كلمة يمكن أن تقارب حجم الفراغ والضياع الذي خلفه رحيل "عبد الله"..

وأي كلمة يمكن أن تواسي كم الألم برحيله غدرًا..

عندما انصرف المعزون في اليوم الثالث، وخلا البيت إلا مني ومنها، بادرتني بصوت خفيض حارب ليصل إلى مسامعي: "ياريتني ما سيبته يروح.. ياريتني ما سمعت كلامه..

وسكتت قليلاً ثم أكملت: ياريتني رحت معاه.. ياريتني كنت بداله.. ياريتني أنا اللي اتقتلت.. واختنق صوتها وسط دموعها وهي تضم قبضة يديها إلى صدرها..

ولم أنطق بكلمة، وأي الكلمات كانت تواسيني في "نور"..

وظلت هي تنتحب.. ولا أعرف كم من الوقت مر، انتبهت على صوت زوجها يطرق الباب ويدخل، جلس صامتًا بعض الوقت حتى هدأت، بادرها بصوت مبحوح من كثرة البكاء:

- أنا أكدت الحجز للسفر بعد بكرة.

أجابته بصوت يائس:

- وعبد الله؟

- الحمد لله على ما أعطى والحمد لله على ما أخذ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، إن شاء الله أول ما نروح هناك هنعمل عمرة، وربنا يصبرنا ويقوينا.

وسافرت "مروة"..

حملت أحزانها وما كان نصيبها من أوزارنا ورحلت..

وملأتني قناعة أنها ذنوبنا التي تراكمت من جراء صمتنا على

الفساد الذي كنا نعيشه ونرتضيه.

وأحدثت مذبحة "بورسعيد" غضبًا واسعًا في الشارع المصري، وأثارت سخط ناسٍ كانوا يحايدون ما يحدث، فأصبحوا الآن يرون الخطر يطرق بيوتهم ويهاجمهم في نواديهم.

ووجدت "منال" التي أخذت مقاعد المتفرجين منذ اليوم الأول للثورة تطلب مني أن أصحبها معي في مسيرة السيدات التي دعت إليها القوى الثورية لمطالبة المجلس العسكري بالرحيل..

نضعف ويملؤنا اليأس حتى إذا صرنا معًا.. وتشابكت أيدينا.. كأنما شرارات الأمل تضيء كالحريق.. وما أجمل أن يحترق اليأس.

بعد انتهاء المسيرة تجولت مع "منال" في شوراع "وسط البلد"، كانت ترغب في زيارة شارع "محمد محمود"، رائحة البطولة والشرف على الجدران، وجرافيتي الشهداء يغطي حوائطه، الشباب يكرون ويفرون فرادى ناحية السور الخلفي لوزارة الداخلية، ورائحة الغاز المسيل للدموع تملأ المكان.

وفي أحد الشوراع الجانبية كانت أقرب مستشفى ميداني للشارع الذي أصبح شارعًا للشهداء، وعلى الرصيف فرش الأطباء حصيرة وبطانية، يطببون عليها الشباب الجريح، ويجلسون هم على الرصيف، وتكرر مشهد الشباب يجرون حاملين أحدهم في نوبة تشنج بعد تعرضه للغاز المسيل للدموع، ويسارع الأطباء لإسعافه..

لم نتكلم أنا و"منال" كثيرًا، لم تكن تتصور حجم الخراب الذي لحق بالمكان، الشوارع الجميلة التي حفظنا في قلوبنا خطواتنا فيها تحولت إلى ثكنات جنود، والأسلاك الشائكة بكل مكان، ورائحة الغاز

الخانق، والزلط وكسرات الرخام تغطي الأرض، وبين الحين والحين نجد طلقات الخرطوش الفارغة على الأرض..

والناس على المقاهي مستسلمين لأيام يستوي فيها الصباح والمساء، والمحال نصف مغلقة مستعدة لإنزال أبوابها حال يشتعل المكان..

والجنود ببزاتهم الرمادية، والضباط بثيابهم السوداء، ومعهم ناسٌ جامدو الوجوه بملابس سوداء منتشرين في كل مكان، عرفنا فيهم ملامح مخبري أمن الدولة القديم..

واختفت ملامح "ميدان التحرير" الذي عرفته، امتلأ بآخرين غريبي الوجوه، تمركزوا في حديقته الوسطى واحتلوا أركانه، وكأنما وُجدوا ليشوهوه وليعدوا أنفاسه، يراقبون الرائحين والغادين..

وتبعثر الثوار في شوارعه الجانبية.

كتبت يومها على صفحتي وصفًا لحال شوراع وسط البلد، وكأنما كنت أرثيها.

تمنيت لو استطعت أن أتكلم مع "خالد" كما كنا نفعل، مر الآن عام وشهران من آخر مرة رأيته فيها، فتحت صفحته، وجدته قد وضع اسمه الحقيقي.. ملأني الإطمئنان على حاله، ووجدته قد وضع صورته عليها، أحسست بعينيه تبتسمان لي، مددت يدي أتحسس وجهه على شاشة الكمتور وكأنني أستنطقه، تذكرت حديث "مروة" وتمنيت لو حادثني.. لكنه لم يفعل..

ثم انتقلت بعدها لصفحات الأخبار على الشبكة الإلكترونية لأرى إعلان فيلم "أشرف" الجديد، كان فيلمًا كوميديًا، وتذكرت وأنا أقرأ تفاصيل الفيلم المنشورة في الخبر آخر مرة حادثت فيها "أشرف" وكم

كنت قاسية معه..

ولكنني الآن لا أشعر بذلك الغضب الذي كان يعتريني ساعتها، ربما اتسعت رؤيتي، ربما أصبحت أنظر للأمور من نفس تلك الزاوية التي كان ينظر من خلالها..

ربما نحتاج أن نهدأ لبعض الوقت.. وأن ننتظر حتى ينقشع الضباب..

وكان أول ما فعلته في اليوم التالي أن بعثت إلى مكتبه بطاقة تهنئة على فيلمه الجديد تحملها باقة من الورود، وختمت تهنئتي بقولي:

".. ولن أنسى أبدًا من عرفت في أجمل أيام حياتي".

وحادثني "أشرف" بعدها، وشكر لي تهنئتي، ولم نتحدث في أي من الأحوال المحيطة بنا، وكأننا كنا نحتفظ بعلاقتنا طيبة بعيدًا عن وطيس الأحداث.

***

تُلهينا رؤية أنفسنا عن رؤية من حولنا، ويحجب صوتنا أصواتهم، وتخفي صورنا في أعيننا وجوههم.

راوية

واقترب "شم النسيم"، وحاولت مع اقترابه أن أعيد ما تهدم من علاقاتي مع معارفي وأقاربي.

أخذتنا الشهور الفائتة في دوامتها فأنستنا ما كان قبلها.

وحادثت "نادية" لأهنئها، وطال حديثنا ما يزيد عن الساعة، وسألتني عمن أنتوي انتخابه في حال انعقاد الانتخابات الرئاسية، وأجبتها أنني بين انتخاب الدكتور "أبو الفتوح" و"حمدين صباحي" وإن كنت للدكتور "أبو الفتوح" أقرب بحكم معرفتي بنشاطه قبل الثورة.. وأكملت قائلة:

- ويمكن أنتخب مرشح "الحرية والعدالة" الدكتور "محمد مرسي"، لسه مش عارفه، كل يوم بيجيب حاجات جديدة.

- مرشح الإخوان يا "راوية"؟

- ودي فيها إيه يا "نادية"؟ طيب وانت هتنتخبي مين؟

- اللواء "عمر سليمان" طبعًا.

وسكت بضعة لحظات قبل أن أجيبها:

- أنا معرفش انه مرشح نفسه.. بس حتى لو رشح نفسه.. يبقى لزمتها إيه الثورة بأه؟

- ويعني عاجبك حالنا ده؟ ياريت نرجع زي ما كنا.. ياريتها ما كانت.

- إزاي بتقولي كده يا "نادية" وانت عارفة حجم الفساد اللي كان موجود أيام "مبارك".

- ماكل نظام وفيه عيوبه، وبعدين احنا كنا كويسين، انت مثلا مش كنت عايشة كويس قبلها؟

- غريبة قوي إنك إنت اللي بتقولي كده!

- ليه؟

- بحكم نشاطاتك في الجمعية الخيرية.. أكيد عارفة الناس في البلد حالها ازاي، إحنا كنا مشرفين على الإنشطار من كتر تباين الطبقات.

- بس مش دول اللي عملوا الثورة.

- بس اتعملت علشان دول.

- ويعني هي حلت لهم مشاكلهم.. إحنا داخلين على ثورة جياع، إما كانش يمسكها واحد زي اللوا "سليمان" بإيد من حديد.. يبقى على الدنيا السلام.

وأدركت من حديثى مع "نادية" أنها لا ترى قاطني العشوائيات، ولا الفقراء، ولا المهمشين، ولا ترى من كانوا في "ميدان التحرير" ولا تراني ولا تدرك مدى خوفنا من غدنا.

وأدركت أنني كذلك لا أراها ولا أرى هؤلاء الذين قلبت الثورة موائدهم، كما لا أرى خوفهم من غدهم.

واجتمعنا و"رغدة" و"عليّ" وأبناؤهما في يوم "شم النسيم" كعادتنا كل عام، لكن "شم النسيم" هذا العام كان مختلفًا، فقد حضر "كمال" لقضائه معنا، لكنه حضر وحده ولم يحضر أسرته معه، خاف عليهم من أحوال البلد المضطربة.

قلت: بس الأحوال مش بالدرجة السيئة اللي انت متصورها يا "كمال".

كمال: انتو متعرفوش الأخبار بتوصلنا إزاي هناك.. البلد دي عايزة دكتاتور علشان يحكمها.

ردت أمي على كمال بحسرة: طيب ماهو كان بيحكمها.. وكانت النتيجة إنك سبتنا وسافرت.

قلت: دي مراحل لازم نعدي فيها، لازم أي ثورة تعدي فيها، مش كل حاجة بتيجي مرة واحدة..

وانتبهت إلى أنني أصبحت أتحدث مثل "رغدة"، وربما أصبحت أكثر صبرًا..

وألقت انتخابات الرئاسة والمزمع عقدها بعد شهر تقريبًا ظلالها على أحاديثنا، كانت الأحكام باستبعاد الشيخ "حازم أبو اسماعيل" من سباق الرئاسة قد سببت هياجًا في الشارع السياسي.

ولم تمض عدة أيام حتى اندلعت مظاهرات ومسيرات خرجت من مليونية "إنقاذ الثورة"، وتوجه أنصار الشيخ "أبو إسماعيل" صوب وزارة الدفاع المصرية بميدان العباسية مطالبين بالسماح بالطعن على قرارات اللجنة العليا الرئاسية، وأيدتهم كثير من القوى الثورية.

وكان إعتصام وزارة الدفاع وعنفه وضحاياه هو الأسوأ في كل ما مر بنا، فنحن الآن نسير إلى معقل جيشنا ونثور عليه، وكأننا نحارب أيادينا وأرجلنا لنقوّمها، وكأننا نطعن قلوبنا لنطهرها.

وعدنا نعد الأيام حتى نصل إلى يوم الإنتخابات الرئاسية..

سئمت لون الضباب الذي يلفنا منذ مايقرب من العام ونصف..

وكلما حاولت أن أرى طريقي.. افترقت بي الطرق..

وكلما حاولت أن أضبط خطواتي.. اختلت موازيني..

اشتقت للألوان الواضحة.. لم يعد أمام عيني سوى اللون الرمادي..

واشتقت لابنتي "نور"..

واشتقت لميدان التحرير..

واشتقت لخالد..

كنت عائدة يومها من عملي، وجدت أمي وأبي بانتظاري، كانا ينظران لي باشفاق، وتعجبت لانتظارهم لي على هذا النحو:

فقلت باستغراب: في حاجة يا ماما؟ في حاجة حصلت؟

ردت أمي: لا يا حبيبتي، بس احنا بقالنا كتير مقعدناش معاكي، فقلنا انهارده نستناكي علشان كل مرة بترجعي تنامي ومش بنلحقك.

وأكمل أبي: غيري هدومك وتعالي اقعدي نتعشى سوا، وانهارده هتقضيه معانا احنا.

وابتسمت شاكرة، وغادرت لغرفتي لأبدل ثيابي.

ما أجمل ما بين أبي وأمي، يتكلمان دائمًا كواحد، يقول هو أول الكلام لتكمله هي، وإن ضحكت هي أكمل هو ضحكتها..

يثني على كل ما تفعله وتمتدح هي كل ما يفعله مهما كان بسيطًا.

ينسجم صوتاهما وكأنهما صوت واحد، حتى في الشكل، أصبحا

متشابهين، كأنهما أخ وأخت، أو كأنهما واحد.

أمضيت الأمسية مع والديّ، وتعجبت لمعرفتهما بكل الأحداث، وكنت أظنهما غائبين عن مجراها، لم أكن مدركة أنهما يتابعان كل ما يحدث إلى هذا الحد!

يعرفان كل الشخصيات السياسية التي ولدت على الساحة، ويملكان رأيًا في كل منهم، ومع كل رأي دليله، فهذا منافق، وهذا جرئ، وهذا شجاع، وهذا كذاب، ولم أعارضهما في شيء مما قالا، بل على العكس، أضاء حديثهما لي كثيرًا من المساحات السوداء في رؤيتي لما يحدث حولنا، بل ووجدتهما قد اختارا مرشحيهم لانتخابات مجلس الشعب الفائتة بعناية بالغة.. ووجدتهما قد حددا مرشحهم للرئاسة..

كانا يريان الصورة أوضح مني، ويعرفان مواطئ خطواتهم وقتما تاهت بي خطواتي.

تُلهينا رؤية أنفسنا عن رؤية من حولنا، ويحجب صوتنا أصواتهم، وتخفي صورنا في أعيننا وجوههم.

احتضنت أبي وأمي طويلًا وأنا أتمنى لهما نومًا هادئًا، وانصرفت لغرفتي..

وقفت أمام صورة البحيرة، ولم أتردد هذه المرة، قلتها بصوت عالٍ وكأني أريد أن أسمعني.. "خالد"..

أراك في كل مرة أنظر فيها إلى هذه الصورة..

وأراك في كل مرة أغمض فيها عيوني على حلم جميل..

وأراك في كل مرة أصحو فيها على كابوس طويل..

جلست إلى كمتوري..

أظن أنه قد آن الأوان لأعرف هل أنت هو؟

وهل أنت من سيصحبني فيها؟

هل أنت من سيشاركني بحيرتي؟

كانت صفحته مضاءة.. ولم أفكر كثيرًا.. كتبت:

- "خالد"..

- أيوة يا "راوية".

وشرعت في كتابة كل ما في قلبي.. قلت له.. أنني لم أستطع أن أنساه، قلت له أنه من يوم أن ظهر في حياتي وكأنني ولدت من جديد، وأنه كان معي في كل يوم من يوم تحادثنا أول مرة، وأن طيفه لم يزل يسكن خيالي.. كتبت كثيرًا.. كتبت كل ما شعرت به من يوم عرفته.. ثم..

لم أقدر على أن أضغط زر الإرسال..

لم أقدر..

- أيوة يا راوية فيه حاجة إنت كويسة؟

ومسحت كل ما كتبت..

وسكت بعض الوقت ثم قلت له:

- فيه لعبة ظريفة تحب تلعبها؟

- قولي.

– هقولك كلمات وانت تقولي اللي بييجي على بالك ساعة ما تسمع الكلمات دي وتوصفه، وشايف مين معاك فيها، وعايز تفضل فيها ولا لأ.. وانا في آخر اللعبة هقولك معنى اللي قلته ده.. ماشي؟

– قولي.

– أول كلمة غابة.

سكت بعض الوقت ثم قال:

– غابة كبيرة والأشجار عالية ولونها برتقالي، ونور الشمس بيتخللها، وانا واقف فيها ومش خايف ومعايا ناس بس واقفين بعيد عني.

وتذكرت غابتي التي وصفتها لمريم في آخر مرة لعبنا فيها هذه اللعبة، كانت تشبه هذه الغابة، ثم أكملت:

– دبة.

– دبة طيبة بس مش بتاعتي. يعني أنا معدي من جنبها وبشاورلها من بعيد.

– بحيرة.

وعلت دقات قلبي وفتحت عينيّ على آخرهما، وحبست أنفاسي..

ماذا لو أنه قد تزوج بأخرى..

ماذا لو لم تكن هذه اللعبة حقيقية..

ماذا لو كانت مجرد لعبة..

– بحيرة هادية والدنيا صبح والجو جميل وانا ماشي حافي في المية و.. بس..

- وبس؟

- آه وبس..

- مين معاك.. قول..

- أقول بس مافيناش من زعل؟

- قول.. قول لو سمحت..

- مفيش حد غيرك.. هم سابوكي هناك لوحدك كده ازاي.. هههههههه..

- انت بتضحك ولا بتقول الحق؟ إنت شايفني؟

- شايفك فين بس، هي دي مش لعبة؟ وعلى العموم أيوة مفيش غيرك في البحيرة، وعلى فكرة بأه.. إنت مش على الشط..

- أومال إيه؟

- إنت طالعة منها.. خارجة منها يعني.. و.. وبس..

- وإيه تاني؟

- وبس.

وسكتّ.. وانتبهت إلى الابتسامة على وجهي تكاد تخرج عن حدوده..

ماذا لو لم تكن هذه اللعبة حقيقية.. ماذا لو كانت مجرد لعبة..

وجاءتني كلماته:

- خلاص كده خلصت اللعبة ولا لسه فيه حاجة تاني؟

- قصر.

- قصر بسيط ومريح وانا واقف بره وببص عليه.

- تحب تدخله؟

- مفيش مانع، لما الدنيا تِلَيّل هدخل.

- بس خلاص.

- طيب قولي لي بأه معنى الكلام ده.

- الغابة حياتك وانت شايفها ازاي، والدبة شريك حياتك، والقصر هو القبر.

- كويس.. الكلام مش وحش، طيب والبحيرة اللي انتي طالعة منها؟

وترددت قبل أن أكتبها..

- الحب.

وسكتنا طويلًا.. وخبأت وجهي بيدي وكأنه جالس أمامي، ولم أقدر أن أكتب كلمة ثانية..

ماذا لو لم تكن هذه اللعبة حقيقية.. ماذا لو كانت مجرد لعبة..

وجاءتني كلماته بعد بعض الوقت:

- أنا كمان عندي لعبة حلوة.. تحبي تلعبيها؟

- اتفضل.

- هقولك كلمات وانت تقولي اللي بييجي على بالك، وشايفة مين معاك فيها، وعايزة تفضلي فيها ولا لأ.. بحيرة..

وأجبته بلا تردد:

- إنتَ.

***